دراسات لغوية

أصول اللغة العربية
بين الثنائية والثلاثية

دكتور توفيق محمد شاهين

يطلب من
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة ت ٩٣٧٤٧٠

الطبعة الأولى

رجب سنة ١٤٠٠ هـ ــ مايو سنة ١٩٨٠ م

دار التضامن للطباعة
٢٢ شارع سامي ميدان لاظوغلي
تليفون : ٣٠٥٥٦

تقديم

بفضل التقدم العلمي والتكنولوجي ، تقدمت الأبحاث اليوم كثيرا في علمي (الفونتيك Phonetique) و (الفونولوجيا Phonologie) ، وحلت مشاكل كثيرة في اللغة الانسانية بعامة .

وقد بحثت اللغات السامية في ضوء المعايير الحديثة لعلم اللغة : (Linguistics) على يد المستشرقين اكثر من دراستها على يد ابنائها ، مع انهم اقدر على ذلك من غيرهم ، لتشربهم روح السنتهم ، ولسهولة ادراكهم لأسرارها وخواصها .. واتت هذه الأبحاث بثمرات طيبة : وضحت الغامض ، وأزاحت السجف ، واستقرت بها امور كانت غير قارة . واذا لم تسعفنا ظروف السبق في الميدان العلمي ، فلا اقل من ان نحول اللحاق فيه .

ولغتنا العربية غدت — والحمد لله — احدى اللغات العالمية الكبرى في المحافل الدولية ، فضلا عن انها لغة حضارة راقية ، وتنتمي الى اعرق الأسر اللغوية . ولها مشاكل مازالت تنتظر فصل القول فيها .

والساميات عموما — وفيها العربية — بميزة الاعتماد على الجذر والاشتقاق مما يدفع بدراسة النشوء والارتقاء لها ، عسى أن نعرف من هذه الدراسة ما يبدو أحيانا من اضطراب أو خلاف أو تناقضات أو نزاعات .. في الضوابط ، أو التصريف ، أو المعنى في القاموس .. على نحو ما نختلف أو نؤول أو نخرج ..

ومع اجلالنا لعلمائنا القدامى ، واستمطارنا رحمات الله تعالى ورضوانه عليهم ، جزاء ما بذلوا وقدموا .. الا أننا نقول : لو توفرت لهم عوامل التقدم (التكنولوجي) ، ولو نظروا في الساميات عموما وما يجاورها ، في عمق وشمول دراية ، لغيروا رايهم في امور ، ولجاءت مؤلفاتهم القيمة لايعتورها غموض أو قصور في بعض الجوانب ، ولكن يحفها التناسق المعنوي ، واللفظي المعقول في اتساق يأخذ بحجز بعضه .

والعربية — من دون اخواتها الساميات — لانعرف من بدايتها ما نعرفه عن اخواتها ، لأن لشقيقاتها نصوصا كثيرة أوضحت معالم تاريخها .

بينما ما عثر عليه من نصوص عربية قديمة لاتعطى معرفة وافية بالبدايات الاولى فى تاريخ عربيتنا .

ولأن ما عثرنا عليه من نصوص قديمة للعربية بعيدة كل البعد عن النصوص الأدبية الجاهلية ، التى وصلتنا فى مستوى عال من جميع جوانب العربية : اسلوبا وصيغا واتقان معان ، ودقة موسيقى ..

ومعنى ذلك : ضياع حلقات عديدة من النصوص جعلت فجوات بين الاصول ، وبين ما نجده من حال العربية فى نصوصها الراقية فى الادب الجاهلى : أى أن الدراسة اللغوية العربية بدأت بدراسة اللغة المدونة ، وما وصلنا منها يمثل حال فتوة وشباب . أما البدايات فقد لفها صمت التاريخ ، واهمال الأبناء ، ورمال شبه الجزيرة العربية بقسوتها ورهبتها .

* * *

وفى هذا البحث المتواضع أردت أن القى بعض الأضواء على مشكلة « الثنائية ، او الثلاثية » فى الأصول العربية ، وهى مشكلة ألمع اليها بعض اللغويين ، وتعرض لها بعضهم صراحة أو ضمنا ، لكن فى اشارات غير بعيدة ، ولا أبحاث عميقة ، مع أهمية البحث فيها وضرورته ، لانها تمثل احدى المشاكل الكبرى للغتنا ، اذ هى وسيلة للتأصيل فى الدور التصريفى، وكاشفة لتاريخ الاشتقاق ، وتطور المعنى ، وتدرج المبنى ، وازالة التضارب بين اشتجار المعانى وتنافرها أو اختلافها :

فحين تحدث القواميس — مثلا — ، أن معنى (نهر) : الزجر ، او الجريان والسيولة ، أو الضوء والسنا .. يحار المرء أمام هذه التناقضات أو الاختلافات ..

ولكن حين ترشد (الثنائية) الى أن الجذر الثنائى : (نه) من (نهر) ، يعطى معنى : النهى ، والزجر ، والنهر . وأن الجذر الثنائى : (هر) يشير الى معنى السيولة حين جريان الماء وسيولته . وأن الجذر الثنائى : (نر) ، يكتنز بحرف العلة فيكون : نارا او نورا فيبدد الظلام .. حين تتدخل

« الثنائية » وتمين وترشد وتقرب وتدنى — فيزول الاضطراب ، وتتغير النظرة الى بعض ما ظنناه خللا ، او قصورا ..

والله أسأل ان يكون بعض التوفيق حالفنى فيما سطرت فى هـــذا الجانب ، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم .

وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب .

توفيق محمد شاهين

مقدمة

اللغة ظاهرة اجتماعية غير مادية .. وتحتاج لذلك عند تحديد عناصرها ومعرفة ماهيتها الى عمليات متعددة غاية فى التعقيد والتداخل ، لتشعب عناصرها بين الارسال والاستقبال والتداعى والترجمة ، ويسبق كل ذلك تفكير وتقدير وتدبير : « **فتبارك الله احسن الخالقين** » (المؤمنون : ١٤)

فهى أكثر من اصوات ، وأكثر من أن تكون اداة للفكر وأكثر من أن تكون تعبيرا عن الاغراض لجماعة ما . ولذا صدق أن يقال : ان الانسان صار باللغة انسانا ، وبلغ بها العقل منتهاه ، واخذت بها الحضارة أوجها ذروة واتســـاعا .

وحين ترقى اللغة برقى أهلها ، تأخذ حيزا من القداسة ، يرفع شأنها ، ويدفع استمرار وجودها ، ويتيه بها اهلها .

وليس بغريب — اذن — ان يكلف بأبحاثها الملوك والرؤساء والمفكرون والفلاسفة فضلا عن سدنتها وعلمائها ، فأبحاث تأصيلها وادراك كنهها لم تنقطع منذ فجر التفكير حتى الآن ، لما لها من اهمية وغرابة .. اذ انهـــا فى الواقع جزء من كيانها النفسى والروحى .

ودارت الأبحاث اللغوية — وتدور — حول التطور الخارجى للغة ، وحول التطوير — الداخلى لها : اى فى مجال البنية والطبيعة الصوتية من جهة ، وفى مجال الوظيفة الاجتماعية استعمالا واستمتاعا من جهة اخرى .

وعلى كثرة الأبحاث المتتابعة والمستمرة فى ماهية اللغة ، فان نتائج الأبحاث لم تتخذ — غالبا — صفة التعقيد الجامع المانع ، ويرجع السبب فى ذلك الى ان بعض الأبحاث ذات الصلة الوثيقة باللغة ما زالت تحبو فى دنيا الكشف والمعرفة كتشريح المخ البشرى ، وتصنيف وظائفه وكشف مخبوئه ، وديناميكية عمله المبهر المثير .

ورحم الله علماءنا القدامى ، فقد اسهموا بجدية واصالة فى هذه الأبحاث اللغوية بما اسعفتهم الوسائل وتيسرت لهم السبل . فاكتشـــفوا طرقا ،

وارسوا قواعد ، واضافوا ورجحوا .. فهم لم يكونوا عالة ، كما لم يكونوا حملة بريد ، ولا ناقلي رسائل ، كما يرميهم خصومهم وشانئوهم .

ومنذ القرن الثاني الهجري كان كتاب سيبويه أشهر كتاب يصف ميادين الأصوات والصيغ والتراكيب وتتابعت الكتب القيمة بعده .

وخير من يكفينا مؤنة النزال عند التحدي بتفصيل ادق واشمل وأعمق، واخص علامتنا : ابو الفتح عثمان بن جني (٣٩٢هـ) — طيب الله ثراه — بما قدم من بحوث مبتكرة في فكر ثاقب فرض نفسه على الزمن بالدقة والاصالة والخلود ، ولعله خير من عرف اللغة الانسانية الأولى بانها : « أصوات يعبر بها كل قوم عن اغراضهم » ، فأشار الى الطبيعة الرمزية الصوتية للغة من جهة ، والى وظيفتها الاجتماعية بين ناطقيها من جانب آخر ، وان كان التعريف غير مانع ولا جامع كما يقول علماء المنطق ، في شرط التعريف .

❋ ❋ ❋

ولغتنا العربية اصيلة ، تنتمي الى عائلة لغوية كبيرة عريقة عراقة التاريخ ، تعرف : « باللغات السامية » كما اطلق عليها (شلوتزر) العالم الألماني وزميله (ايكهورن) .

وقد لعبت الشعوب التي تكلمت مجموعة هذه اللغات على مسرح الحضارة العالمية دورا حضاريا رئيسيا خلد على الزمن .

والعربية غنية ثرة ، حملت في ثناياها عوامل تزكيتها ونمائها ، ومن ثمّ سايرت التطور الحضاري والفكري ، وعبرت في يسر عن الفكر الأصيل بكل ابعاده حين اضحت لسان القرآن الكريم ووعاءه ، ووسعت الفكر الدخيل حين مست الحاجة الى التطلع اليه والاستعانة به .

❋ ❋ ❋

وقد قطعت الأبحاث اللغوية — اليوم — شأوا بعيدا في العديد من مجالاته ، بفضل ما تهيأ للباحثين من وسائل التقنية والتكنولوجيا الحديثة ، فكان الجديد والمفيد والمثير ، ثمرة لعاملين متكاملين ، هما علم الفونتيك (Phonetique) وعلم الفونولوجيا (Phonologie) بما اسدى

للدراسات اللغوية خدمات جلى وكشف ابهام كثير من امور اللغة ومشاكلها التى كانت تدور فى تجويفات غير علمية ، وفى توهمات وتهويمات لا يتقبلها العقل الحصيف ، ولا تثبت امام النقد على أسسه وتحت مقاييسه .

ولم يعد بعض العلماء اليوم أسرى تعلم لغة واحدة ، فعرف كثير منهم اكثر من لغة ، لتتضح أمامه الرؤية ، وتزول عنه حواجز القصور ، والحيز الضيق ، والأفق المحدود .

ولغتنا العربية — كغيرها من اللغات — لها قضايا ومشاكل ، منها ما هو خاص بها ، ومنها ما هو مشترك بينها وبين اخواتها الساميات وغيرها، مع ما يلحق بكل منها من لهجات ، مما أوجب اعتبار المجموع كلغة واحدة تفرقت خواصها واسرارها فى مختلف اللغات الأخوات ، ويقتضينا ذلك البحث والاستعانة بميزات لغة لفائدة شقيقتها ، فى انارة غامض ، وتوضيح مشكل ، فى لغة بما هو واضح وصريح فى لغة اخرى . وبذلك يتم ايضاح التناسق المعنوى والمنطقى ، وازالة ما قد يبدو متضاربا ومتناقضا بين أخوات السامية ، كما يزيل اخطاء ما وقع فيه الأقدمون من خلط وقصور ، نتيجة الجهل بلغة اخرى ، او القصور فى معرفة مميزات وتشابهات المجموعات اللغوية كل على حدة .

* * *

ولغتنا العربية قضية خلافية ، طال عليها الأمد ، ولم يتضح وجه الحق فيها حتى الآن الا وهى قضية الأصل الثلاثى أو الثنائى لها .

لأن الساميات عموما تنفرد بميزة ظاهرة : الا وهى الاعتماد على الجذر والاشتقاق ، مما يوجب دراسة النشوء والارتقاء للأصول عسى أن تحل مشاكل الاضطراب فى القواعد أو الضوابط اللغوية بمعنى أصح ، وتزول نقاط الخلاف فى الشذوذ والاضطراب ، وتخف مشاكل القاموس فى النزاعات والمتناقضات .

وفى هذه العجالة — سنحاول — بفضل الله — رسم القسمات والسمات البارزة فى هذا البحث الشائك والزاخر ، والصعاب المنهجية لهذه القضية العلمية ، عبر القرون . عله يسد ثغرة شاغرة ، ويجبر جانب تصور فى قلة الأبحاث العلمية للثنائية والثلاثية .

ومبدئيا — يلاحظ أن بعض الباحثين اللغويين يعد مرحلة « الاشتراك في الحرفين — أو في غير الثلاثية — مرحلة تاريخية لم يعد البحث فيها مجديا الا ضمن البحث التاريخي ، لأنها بدء مرحلة غير ثابتة ، أي غير مبني على بحث واستقراء واسعين للغة العرب ، التي تبلغ موداها : زهاء ثمانين الف مادة ، كما ذكر في معجم (لسان العرب) (١) واكثر كما في غيره.

ولكننا ندعو الى مزيد من البحث في هذه القضية للبت فيها ، اذ هي وسيلة للتأصيل ، وبخاصة لجلاء الطور الذي سبق التصريف ، وبيان أواصر العربية بأخواتها الساميات ، واستخراج النتائج التي من شأنها بيان التلاحق والتناسق المنطقي والمعقول ، في سير توقع الالفاظ وتطور مداليلها (٢) .

* * *

ثنائيون وثلاثيون :

وكثرة من علماء اللغة يرون أن الرس والاصل للغتنا العربية هو الثلاثي: اذ لابد من حرف يبدأ به ، وحرف يوقف عليه ، وثالث هو الواسطة بينهما وتلك نظرة الصرفيين أيضا .. واذا ثبت أن البحوث النحوية والصرفية في اللغة العربية قد تأثرت الى حد كبير بالفكر اليوناني الاغريقي : فلا غرابة في أن يركن فريق من الباحثين في هذه القضية الى القول بالرس الثلاثي ، ومن هنا يريحون ويستريحون على قياس من المنطق الصوري .

على أن من علمائنا القدامى والمحدثين من بحث أمر الثنائية اصالة ، او عرضا ، أو افترضوا وجودها في مصنفاتهم .

ويصف الأب مرمرجي الدومنكي — سادن الثنائية — العلماء الذين طرقوا باب الثنائية عرضا او افترضوا وجودها في مصنفاتهم بأنهم : « معتقلون في سجن النظرية التصريفية العتيقة ، القائلة : بأن اصول الكلام أسماء وافعالا مركبة من ثلاثة أحرف لا أقل » .

---

(١) فقه اللغة العربية — د . ابراهيم نجا ص ٨٩ .

(٢) معجميات عربية سامية : للأب مرمرجي الدومنكي ص ١١٢ .

وعد الأب مرمرجي — تحت عنوان — ثنائيون أجانب ومصنفاتهم (١) من العلماء الأجانب — الذين بحثوا أمر الثنائية في لغتنا العربية وأيدوها — زهاء الخمسين عالما ، ابتداء من أوائل القرن الثامن عشر ، حتى منتصف القرن العشرين الميلادي .. بعضهم بحث أمر الثنائية في ايجاز على صورة أبحاث ومقالات ، وبعضهم توسع في بحثها فأخرج مؤلفات ومصنفات خاصة (٢) . فأمرهم لم يقتصر على العلماء العرب ، وانما أسهم العلماء الأجانب بسهم وافر في بحث الثنائية في أسس لغتنا العربية ! ؟ .

ومن اشهر علمائنا العرب الذين بحثوا أمر الثنائية عرضا ، أو افترضوا وجودها :

— ابن جنى (٣٢٠ — ٣٩٢هـ) في « الخصائص » .

— وابن فارس (٣٩٥هـ) في « مقاييس اللغة » .

— والراغب الأصفهاني (٥٠٢هـ) في « غريب القرآن » .

— والبيضاوي في « انوار التنزيل » .

— وابن منظور الافريقي المصري (٦٣٠ — ٧١١هـ) في معجمه « لسان العرب » .

— ومحب الدين الزبيدي (١١٤٥ — ١٢٠٥ هـ) في قاموسه « تاج العروس » .

واشهر من بحث امر الثنائية من علمائنا العرب صراحة :

— أحمد فارس الشدياق (١٨٠٤ — ١٨٨٧م) في « سر الليال في القلب والابدال » .

— وجورجي زيدان في « الفلسفة اللغوية » .

— وابراهيم اليازجي في « مجلة الطبيب » اللبنانية .

— والأب انستاس الكرملي في « نشوء اللغة العربية » .

— وعبد الله العلايلي ، في « مقدمة لدرس لغة العرب » .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق ص ٥ — ١١ .

— وعبد الله أمين ، فى كتابه « الاشتقاق » .

— وبطرس البستانى (١٨١٩ — ١٨٨٣م) فى مقدمة معجمه « البستان » .

— والشيخ طاهر الجزائرى ، فى كتابه (الكافى فى اللغة) .

— ومنصور بوصالح فى مجلة (الميناء) اللبنانية .

— والاب . أ . س . مرمرجى الدومنكى ، مزاول الثنائية فى كتبه العديدة

ومن هؤلاء العصريين من ينقل عن المستشرقين ، او يستلهمهم رأسا كما فعل جورجى زيدان .

أو لاحقا بواسطة سابق .

ومن الطريف : ان من العلماء من يقول بأن اصل العربية — احادية . قبل أن يكون ثنائية ، كما سنرى .

❋ ❋ ❋

علم اللغة والتقدم التكنولوجى :

فى عصر التقدم العلمى استفادت العلوم كثيرا ، واستفاد بالتالى (علم اللغة) فدخل مجال التصوير والتسجيل والتحليل ، وعند رصد النتائج كان التقدم ملموسا ومرضيا (١) .

وعلوم اللغة متشابكة مع غيرها متداخلة فى ارتباط وتأثير وتأثر ، فلم يبق المجال للغويين وحدهم ، بل حتم عليهم العلم الحديث ان يفسحوا مجالا لغيرهم من علماء : الاصوات ، والتشريح ، ووظائف الاعضاء ، ومبادىء علم الاجتماع ... ليقولوا كلمتهم ، فيتكامل بحث المقدمات على اسس منهجية ، ومن ثم تكون النتائج مرضية .. هذه ملاحظة .

---

(١) والأزهر حامى تراث العربية والاسلام رأى فى عام ١٩٦٢ الا يتخلف عن الركب الحضارى فى مضماره ، وحتى يكون عطاؤه اوفى واكثر حداثة ، وحتى لا يفوته القطار خطط لمنح وابتعاث الى دول لها شأو فى مضمار التقدم .. الا أن هذه الخطط تعثرت حينا ، ثم بدلت الى دول شرقية تلهث لتلحق بعصر التكنولوجيا ، لأسباب ليس هنا مجال سردها .. فكان الأمل سرابا واهيا لا يبشر بنهضة ، ولا يعد لثمرة ، والأمل اليوم كبير فى بعث ونهضة تعيد للأمر سواءه واستواءه ، فتكون الافادة والاستفادة ..

وعمل اللغويين عموما — فى الحقيقة — كما يرى أصحاب المنهج الوصفى : هو تقرير واقع ، لا تعليل لنشأة هذا الواقع ، وتفسير الأسباب التى أدت اليه ، لأن اللغة قديمة جدا ، ولم يأتنا خبر نشأتها الأولى ، ولعلها نشأت مع الانفعالات والعواطف فى جوانبها المتعددة وسايرت الفكر فى أدواره وتطوره .

فقد تحدرت جميع اللغات الى شعوبها ممزوجة بانعدام المنطق اذن ، فهى ليست منطقية ولا قياسية تخضع لقوانين صارمة كما يقول أرسطو ، وكما يبالغ أصحاب المنهج الفلسفى .. وحسبنا اذن ان نقترب من الحقائق فى احتفاء ويقظة ، ونفترض ونقيس : فى اطار الأشباه والنظائر ، وما تسفر عنه الحفريات ، وما تسديه المقارنات .

وموقف أصحاب المنهج الوصفى — اذن — كموقف « أصحاب الفقه عندما يقولون : « ما جاء على أصله لا يسأل عن علته » (١) . وابن جنى يقول :

« العلل فى جوهرها تعود الى المتكلم العربى : لا الى عوامل لفظية » ويقول ابن مضاء القرطبى : « لو ان العرب قالوا : أن زيد ، بتشديد النون وجر (زيد) ، أو أن زيد ، برفع (زيد) ، لقبلنا قولهم على انه الفصيح .

ولكننا نعلم اولادنا الا يقولوا : ان زيد ، أو أن زيد ، بالجر او بالرفع » .

ومعنى ذلك : أن علوم اللغة لا تخدم بالمنهج الفلسفى الصارم ، لانبهام تاريخها القديم ، وندرة شواهدها . وانما تستفيد ويفيدها المنهج الوصفى ، الذى يصف الواقع ، ويسأل الشقائق ، ويفرض المقبول ، ويقيس الغائب على الشاهد .. وتلك ملاحظة اخرى .

وحين نفكر فى حال اللغة العربية قبل ظهور المسيحية (أى قبل ظهور الاسلام بسبعة قرون) نجد أنفسنا فى ظلام دامس .. فليس بين ايدينا نصوص عربية ترجع الى تلك العهود : فأقدم ما عثر عليه لا يكاد يجاوز القرن الثالث الميلادى ، وليس معنى هذا أن اللغة العربية لم تكن موجودة

---

(١) نظريات فى اللغة ، للاستاذ أنيس فريحة ص ٨٤ .

قبل المسيحية ، او أنها أحدث من شقيقاتها السامية ، كالعبرية مثلا . بل يؤكد لنا المستشرقون أن اللغة العربية المألوفة لنا ، قد احتفظت بعناصر قديمة ترجع الى السامية الأم ، اكثر مما احتفظت به الساميات الأخرى » (١) .

ومعنى هذا : اننا فقدنا نقطة البدء التى تنطلق منها لدراسة لغتنا .. ولكن أبحاث النحو المقارن للغات السامية كشف كثيرا من سمات وعلاقات الملامح والوشائج اللغوية لهذه المجموعة .. ومن هنا تحتم أن تتم دراسة العربية وتطورها وتاريخها فى ضوء الساميات ، وقد توافرت وتضافرت نواح عديدة لتلك الدراسات فى الحقبة الأخيرة من العصر الحديث .

واذا نادى البعض بدراسة المجموعة السامية فى ضوء المجموعة الحامية ، لتجاوز المجال الجغرافى للمجموعتين ، فهو جد مصيب ، لمظنة التأثير والتأثر كدأب اللغات حين تتجاور وتحتك .

وتتسع الدائرة الدراسية عند الأب انستاس الكرملى ، حين يقرر بأن العربية قد أثرت حتى فى مجموعة اللغات الهندية والأوروبية ، يقول : « كل كلمة ذات هجاء — مقطع — أو هجاءين ، فى الرومية أو اليونانية ، ولم تكن من أصل منحوت ، بل من وضع أصيل ، أو توقيفى ، فلابد من أن يكون لها مقابل فى لغتنا المضرية » (٢) .

ويستشهد لرأيه بأمثلة كثيرة .

ومعنى ذلك أن عبئا جديدا سيضاف على عاتقى باحثى اللغات بعامة ، ولغتنا العربية بخاصة ، غير أن المشقات تهون ، بجانب ازاحة السجف ، وتبديد الأوهام عن حقبة موغلة فى القدم من تاريخ لغتنا العزيزة ، بقيت حينا من الدهر فى حجاب مستور .

وبعد هذه الملاحظة الثالثة ، نسلم فكرنا للمنهج الوصفى فيقودنا عبر رحلة مضنية ومثيرة فى تتبع جانب لغوى للغتنا العربية ، يتطلب مزيدا من البحث لمزيد من النور .

---

(١) اللهجات العربية ا . د . ابراهيم انيس ص ٣٣ .
(٢) نشوء اللغة العربية ونموها واكتمالها ، للأب انستاس مارى الكرملى ص ١٥٨ .

الأحــادية في اللغــة

نقف الآن وقفة بين يدي « الاحادية في اللغات بعامة ، وفي العربية بخاصة » .

يرى بعض العلماء أن كل لغات العالم القديم تعاقبت عليها اطوار وادوار ، وان طورها الأول ، جعل من كل كلمة من كلماتها (هجاء واحدا ، نتوضع الكلمة احداها بعد الأخرى ، بحسب نظامها النطقي لتادية المعنى المقصود ، ولغة الصين الى الآن على هذا الوضع) . ويؤيد ذلك الشيخ (١) العلايلي للغات كلها (٢) — وأن دورها الأول : (ذو المقطع البسيط ، اى أدنى المقاطع ، مثل (a) وهذا هو الدور الذى ولد المقاطع الاحادية ، والتي هي الجدول الهجائي الفينيقي المتخيل ، وسنذكره فيما بعد ، ويرى أن هذا الجدول يحدد المعاني الكلية التي صاحبت نشأة الحرف في السنة الناطقين الأوائل باللغة .

وهذه المرحلة قديمة قدم التاريخ ، تربط بين اللغة والانسان الفطرى الذى (لا يكاد يرتفع عن مستوى النوع ، الذى هو فصيلة من فصــائله المشاكلة) .

---

(١) الشيخ العلايلي دائب النظر في اللغة العربية ، بفكر ثاقب ، وذهن رائق ، ويجيد عدة لغات ، وشرع في محاولة جريئة لوضع (المعجم العربي) وحده ، لوثوقه من نفســه نجاعة محاولة فذة ، حبذا لو تبنتها المعاجــم اللغوية ، لتتم ما بدأ .. وما رأيته في (بيروت) على مدى عامين — أمــد الله في عمره — الا عاكفا على قاموس قديم يراجعه ، أو فكرة لغوية يحللها ، أو شاردة وواردة يقيدها .

(٢) مقدمة لدراسة لغة العرب . للشيخ العلايلي ص ٢٣ .

ويرى الشيخ ان هذه الأصوات لم تنطبع بطابع خاص يميزها ، بل كانت جارية مجرى الأصوات الاضطرارية ، التي تولدت عن الانفعالات ، ولم تتشكل فيها الأصوات ولم تتميز فيها المقاطع : (كالأنين ، والعنين ، والأحيح ، والهمهمة ، والزحير ، والتحيم ....) وضرب لذلك مثلا بالمقطع (عو) بضم العين ، الذي يدل على الحيوانات الزئيرية و (وا) الذي يدل على الصوت المتكرر بحركة الفكين ، وعنه نشأ الفعل (وو) بمعنى وصل في العبرية . ثم تطورت هذه الأصوات حتى أصبحت ذات أغراض ثابتة بعد تولد المقاطع الأحادية ، ومنها تكون الجدول الهجائي ، والذى أخذت منه كل لغة ما يناسبها من أصوات ، وكل حرف صامت ، أو مصوت (حركة) في هذا الجدول له دلالة مستقلة و « من الممكن جدا تعيين دلالات هذه الحروف بأصواتها حين كانت لغة .. على شيء من الافتراض المقلوب، وسبيل هذا التعيين المملات (اى الأفعال المعتلة) مطلقا وبالأخص اللفيف مطلقا في العربية ، وليس اعتمادها بأخذ معانيها المعجمية على وجه التحديد وانما تنتقل فيها بالمقارنة الى ما هو الادخل في تفكير الساذجين واعتباراتهم » .

وأحال الشيخ العلايلي على لغات سامية ، للحصول على نماذج تقرب الدلالة الأصلية للحرف أو الصوت :

فاللغة (الفينيقية) استخدمت في رسم مقطع الألف (ع) شكل راس الثور ، ومعنى هذا المقطع ايضا هو راس الثور .

ومثل هذه الحروف كانت تدل على اجناس معانيها الفينيقية في العهود الأولى .

فبداية استعمال الانسان اللغة كانت أحادية ، في صورة اصوات وحروف منفصلة ذات دلالات قديمة ، ثم تطورت هذه المقاطع الأحادية الى ثنائية وثلاثية .. كما صورها الشيخ العلايلي في افتراضاته وتصوراته المبنية على الشواهد وسنة الرقي ، وارتقاء الأدوار .

الجدول الهجائي الفنيقي :

نثبت هنا نص الجدول الهجائي (١) ، الذي رآه الشيخ العلايلي نواة للغة في دورها القديم :

١ — الهمزة : تدل على الجوفية ، وما هو وعاء للمعنى ، وتدل على الصفة غالبا .

٢ — الباء : تدل على بلوغ المعنى في الشيء بلوغا تاما ، وعلى القوام الصلب بالتفعل .

٣ — التاء : تدل على الاضطراب في الطبيعة ، أو الملابس للطبيعة في غير ما يكون شديدا .

٤ — الثاء : تدل على التعلق بالشيء تعلقا له علاقته الظاهرة ، سواء في الحس أو في المعنى .

٥ — الجيم : تدل على العظم مطلقا .

٦ — الحاء : تدل على التماسك البالغ ، وبالأخص في الخفيات ، وتدل على المائية .

٧ — الخاء : تدل على المطاوعة والانتشار ، وعلى التلاشي مطلقا .

٨ — الدال : تدل على التصلب ، وعلى التغير المتوزع .

٩ — الذال : تدل على التفرد .

١٠ — الراء : تدل على الملكة ، وعلى شيوع الوصف .

١١ — الزاي : تدل على التقلع القوي .

١٢ — السين : تدل على السعة والبسطة من غير تخصيص .

١٣ — الشين : تدل على التفشي بغير نظام .

١٤ — الصاد : تدل على المعالجة الشديدة .

١٥ — الضاد : تدل على الغلبة تحت الثقل .

١٦ — الطاء : تدل على الملكة في الصفة ، وعلى الانطواء والانكسار .

١٧ — الظاء : تدل على التمكن في الفؤور .

١٨ — العين : تدل على الخلو الباطن أو الخلو مطلقا .

١٩ — الغين : تدل على كمال المعنى في الشيء .

---

(١) المصدر السابق ص ٢١٠ .

٢٠ — الفاء : تدل على لازم المعنى (اى الوضع فى المعنى الكنائى) .

٢١ — القاف : تدل على المفاجأة التى تحدث صوتا .

٢٢ — الكاف : تدل على الشيء نتج عن الشيء فى احتكاك .

٢٣ — اللام : تدل على الانطباع بالشيء بعد تكلفه .

٢٤ — الميم : تدل على الانجماع .

٢٥ — النون : تدل على البطون فى الشيء ، او على تمكن المعنى تمكنا تظهر اعراضه .

٢٦ — الهاء : تدل على التلاشى .

٢٧ — الواو : تدل على الانفعال المؤثر فى الظواهر .

٢٨ — الياء : تدل على الانفعال المؤثر فى البواطن .

وفى نظرة سريعة للمعانى التى اثبتها الشيخ للجدول الهجائى ، نجد تمكنه واحاطته اللغوية ، لطول معاناته وكلفه باللغة .

كما نجد أن المعانى تحيط بحاجيات الانسان الاول ، بل وتتفوقها ، ففيهـا :

الشيء وصفته ، واللين والصلابة ، والاستقرار والقلق ، والتماسك والتلاشى ، والتفرد والانجماع ، والغلبة والانكسار ، والتوقع والمفاجأة ، والطبع والتطبع ..

ولذا يدعونا الشيخ العلايلى واضعو اللغة الجديدة الى الاقدام على الوضع ، لتفى لغتنا بما نطلبه منها ، بدون تردد او خوف ، لانه : «بتقرير هذه القواعد للاشتقاق أصبح الوضع معبدا جـدا : فهو من موقع المـادة فى التعريع ، ومن هيئة — اجتماع الحروف يعين الخصوصية فى غير تكلف .

» .. فروح الشيخ الثائرة تدعونا للوضع الجديد ، وهى دعوة حرية بالنظر والتفهم والتنفيذ ، حتى لا تتهم لغتنا بالعقم او القصور والجمود » (١)

والشيخ فى تصوره السالف يصور مرحلة هو رائدهـا وحـاديها ومنشدها ، ولا دليل فيها ينير الطريق ، وجاءت — مع ذلك — افتراضاته مرضية ومقبولة ، ونرجو أن تتقبل .

---

(١) فى التطور اللغوى أ . د . عبد الصبور شاهين ص ١١٣ .

ومن ثم فلا نرى الاعتراض عليه بأنه يضرب فى (ميتافيزيقا التاريخ) . أو انه يخلط بين مراحل النشاط اللغوى ونشأة اللغة ذاتها .

وان التمثيل من لغات اخرى هروبا من انعدام امكانية التطبيق على لغتنا : فهن شقيقات يسرن الطريق فى الدراسة جنبا الى جنب ، أوان الدعوة للوضـــع الجديد ربمــا تنقلب الى عملية اختراع عربية اخرى ، أو اقحام اشتقاقات اخرى مخترعة تبعدنا عن مألوف لغتنا .

أو أن الدعوة ربما تتطور من تطوير بناء نافع الى عملية تدمير واعصار لتدمير لغوى خطير :

فالأمن متوفر ، والحماية مضمونة ، لأننا نسير على اسس ، ولا نبنى من فراغ ولا فى هواء .. والشيخ العلايلى مجتهد . ورائد يؤسس لمرحلة يقوم فيها الافتراض والتصور ، ومراعاة سنة التطور بدور كبير .. وهى على كل مرحلة تصورية أن كان فيها وهم قليل ، ففيها خيال خصيب ، وارهاص بأن فى لغتنا غناء ، وانها لا تمد يدها كثيرا للاقتراض ، وانما تمدها للاقتراض .

على أن الشيخ العلايلى لم يكن بدعا بين كثير من اللغويين القدامى ، الذين أشاروا الى قريب من قوله هذا ، وبخاصة فى نظرية (المحاكاة) ، سواء من قال بها على أنها ذاتية موجبة ، كما نادى (هيراقليطس) والصيمرى . أو أنها تواطؤية واعتباطية ، كما قال (ديمقريطس) . أو من ذهب مذهبا وسطا بين هؤلاء وهؤلاء .

وقد تلقف ابن جنى النظرية عن الخليل بن أحمد ، وسيبويه ، ثم تحمس لها ودافع عنها كثيرا فى (خصائصه) : بأن أصواتا معينة تدل على معـــان معينة . وأن بين ترتيب الاصوات ومراحل ما تدل عليه ان كان ما تدل عليه حدثا مناسبة طبيعية ظاهرة . وقد سمى الباب الاول : (الاشتقاق الاكبر) ، وسمى الثانى : (تصاقب لتصاقب المعانى) ، وسمى الثالث : (امساس الالفاظ اشباه المعانى) . (١) كما سيجىء

بل واضاف العلماء أن اختيار الحروف وتشـــبيه أصواتها بالاحداث

---

(١) الخصائص لابن جنى ٢/ ١٣٥ .

المعبر عنها بها ترتيبا ، وتقديم ما يضاهى أول الحدث ، وتأخير ما يضاهى آخره ، وتوسيط ما يضاهى أوسطه ، سوقا للحروف على سمت المعنى المقصود ، والغرض المطلوب . (١) كما سنذكر .

وفى العصر الحاضر ذهب مذهب الخليل وسيبويه وابن جنى طائفة من علماء العربية ، نذكر منهم — على سبيل المثال لاعلى سبيل الحصر — الأستاذ محمد المبارك ، والدكتور صبحى الصالح ، والأب مرمرجى الومنكى ، وجورجى زيدان ، وخير الدين الأسدى (٢) .

بل ان بعض المعاصرين ذهب الى ان الأصوات تدل على معانيها مهما يكن موضعها من الثلاثى . وضرب بعضهم مثلا لذلك بلفظة (غرف) :

فالغين تدل على الغموض ، وهى بذلك تناسب أول مرحلة من مراحل حدث (الغرف) ، عندما يغيب الغارف يده أو مغرفته فى السائل .

وان الراء تدل على الحركة ، وهى تناسب المرحلة الثانية من الحدث عندما يحرك الغارف مغرفته فى السائل قبل أن يرفعها .

وان الفاء تدل على الظهور والانفتاح والفصل ، وهذا يناسب آخر مراحل الحدث عندما يرفع الغارف مغرفته فيفصلها عن السائل ، ويظهرها بعد أن كانت مستترة (٣) .

فلا مبرر — بعدئذ — لوصف الشيخ العلايلى — حين ألمع الى الجدول الهجائى الفنيقى — بالاسراف الزائد ، والخرافة المبنية على الأوهام ، والزعم المبنى على غير أساس ، والتكلف الجامح .. كما ذكر الأستاذ محمد الانطاكى، حين يقول :

« واسرف بعضهم فى هذا اسرافا زائدا أخرجهم من دائرة البحث العلمى المبنى على الحقائق الى دائرة الخرافة المبنية على الأوهام ، من هؤلاء الأستاذ عبد الله العلايلى ، الذى يزعم أن كل حرف من حروف الأبجدية

---

(١) الخصائص ٢/١٦٢ .

(٢) الوجيز فى فقه اللغة ، للأستاذ الأنطاكى ص ٣٥٤ .

(٣) المصدر السابق ص ٣٥٥ .

العربية يدل على معنى خاص ، وانــه اذا عرفت معانى الحروف أمكن معرفة الكلمة العربية ، ولو لم تكن معروفة من قبل . ثم يمضى فيجعل لهذه الحروف معـــانى فلســـفية لا نظن انها خطرت يـــوما على قلب الانسان العربى ... » (١)

نقول : لاداعى لذلك الهجوم ، ولم يقدم المعترضـون البديل ، ومحاولةالشيخ العلايلى ان كان فيها خيال كبير .. فالعقل يرفده ، وشواهد السابقين تسانده ، والوارد من الامثلة يواكبه .. ولقد ذكر الأستاذ الأنطاكى فى كتابه : « اننا اذا طرحنا كل أنواع التكلف الذي وقع فيه العلايلى وغيره ، فانه يبقى لدينا كمية كبيرة من الشواهد لايمكن تجاهلها . وهى تشير بما لايدع مجالا للشك : الى وجود مناسبة طبيعية بين اللفظ والمعنى » .(٢) ويمثـل ذلك اعترف (فندريس) العـــالم اللغـــوى ، وان بعض الأصـــوات أقدر من بعضها على التعبير عن معان معينة . وذكر أن النافين للارتباط بين اللفظ والمعنى اعترفوا بمثل هذا القدر من الارتباط (٣) .

وحسبنا اعتراف العلماء بهذه الظاهرة ، وان الكمية الواردة والمعترف بها كبيرة .

فالاحادية — ولاشك — كانت مرحلة ، ثم تخطتها البشرية عندما سنحت لها فرصة تطور ، وظرف رقى وترق .

* وما فتئت لغات — حتى يومنا هذا — فى مجموعـــة الهند وأوروبه (كالهندية الصينية) تضع عددا كبيرا من مفردات معجمها من حرف صامت واحد ، تؤثر فيه النبرات الصوتية (Tons) ينتقل بفضلها الى مفاهيم كثيرة ومختلفة ، كما فى (Fan) (٤) .

---

(١) الوجيز ، للأنطاكي ص ٣٥٥ ، ٣٥٦ . وتهذيب المقدمة اللغوية للعلايلي الدكتور اسعد على ص ٦٣ ، ٦٤ .

(٢) الوجيز ، للأنطاكى ص ٣٥٧ .

(٣) اللغة ، لفندريس ص ٢٣٦ .

(٤) الاصوات أ.د.ابراهيم نجا ، ص ٦٠ ، والألسنية العربية للاستاذ ريمون طحان ص ٧٧ .

فالكلمة الصينية تتكون من مقطع واحد مفتوح او مغلق يدل على معنى عام يحدده السياق .

ويؤيد ذلك الدكتور محمد مصطفى رضوان ، فى مقاله القيم ، بمثل : (ت Ta) فهو يفيد معنى عظيم ، او كثير ، او يعظم ، أو عظم . والطريقة التى تتبع فى ترتيب الالفاظ تحدد المعنى المراد ، فاذا قيل : (ت كوك Ta Kuok كان المعنى ، الدولة العظيمة،وان عكسنا الترتيب،وقلنا:(كوك ت Kuok Ta) كان المعنى : الدولة عظيمة ولعل اللغات السامية — ومنها العربية — انتهجت هذا المنهج فى بداية امرها .

أو قريبا من هذا المنهج ، بالرغم من انه ليس لدينا من الوثائق التاريخية ما يفيد الجزم واليقين .

لكن غالب الظن انها سارت ذات المسرب ، ثم انتقلت فى مرحلة ثانية الى الثنائية والثلاثية عبر آلاف السنين (١) .

وقد آمن بالتطور كثير من الباحثين فى تاريخ اللغات الآرية ، ومن أشهرهم : (بب Popp) من القدماء ، و (ود Wod) و (وتنى Whitney وجيرسبيرسين Jersperen) من المتأخرين .

* * *

وقد اشار علماؤنا العرب الى ان للحرف فى اللغة العربية قيمة تعبيرية وقد افاض فى ذلك العالم اللغوى مجد الدين الفيروزآبادى ، فى مفتتح كل فصل وباب من كتابه (٢) .

وذكر بعض المحدثين أن حرف الحاء فى العربية يدل على : الانبساط والسعة والراحة اما حرف الغين ، فيدل على الظلمة والانطباق والخفاء ، والحزن ، ومثل لذلك بالكلمات : (غيم ، غم ، غبن ، غبطة ..) وقد تساءل

---

(١) مجلة كلية الآداب الليبية ع ٤ — سنة ١٣٩٢ هـ .
(٢) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للعلامة الفيروزآبادى .

بعضهم بقوله : وكيف نفسر : (غنى ، وغنج ، وغلام) (١) واقول : بقليل من التأمل ترد الى الخفاء والغبطة .

واحتفى الاستاذ محمد المبارك — كما ذكرنا من قبل — بظاهرة اشتراك الفاظ من مواد مختلفة في حرف واحد وفي جزء من معناها : فالالفاظ التالية ، وفيها كلها حرف الغين تدل على الغموض والاستتار ، وهي في مجالات كثيرة : (غاب ، غار ، غاص ، غاض ، غام ، غرب ، غمض ، غم ، غشى ، غز ، غمص ، غط ، غير ، غبش ، غبن ، غبق ، غفا ، غطى ، غفر ، غمر ، غرق ...) .

والنون في الالفاظ التالية ، وفيها معنى الخروج او الظهور : « نبع ، نبر ، نبت ، نبز ، نبه ، نبأ ، نجم ، نطق ، نفث ... » .

ولذلك يدعو الاستاذ المبارك الى البحث في الصـلات بين الحروف والمجموعات اللغوية مشيرا الى ان ذلك سيكون كاشفا عن اصول العربية وتاريخها الطويل ، وميزتها على اخواتها الساميات والى قياسياتها المطردة ، يقول :

« واعتقد ان البحث في الصلة بين المجموعات الثلاثية وفيما يمكن أن اسميه (التركيب الذرى) للكلمة ، هو بحث تاريخي يرجع بنا الى عهود قديمة للغة العربية ، استقر في نهايتها على شكل هذه المجموعات الثلاثية الرائعة ، التي كانت نتيجة تطور لمراحل تكوينية سبقتها ، تحتاج معرفتها الى بحوث تاريخية واسعة تتناول اللغات السامية جميعا ، وتنتهى الى تعليل بقاء العربية وحدها دون غيرها من الساميات . وتوحى هـذه الامثلة الى ان تركيب الكلمة العربية يشبه كثيرا تركيب المواد الطبيعية المؤلفة من ذرات متفاوتة التركيب » (٢) .

ويعطينا الشيخ العلايلي تصورا مقبولا للقيمة التعبيرية للحرف المفرد ، لدور سابق ومرحلة موغلة في قدم التاريخ البشري : فيرى مثلا ، أن حروف (ج ب ل) تعطى تصورا صحيحا عن الجبل في ارتفاعه وشموخه ،

---

(١) نظريات في اللغة ص ١٩ .
(٢) عبقرية اللغة العربية ، للأستاذ محمد المبارك ص ٢٢ ، ٢٣ .

واتصاله وتمكنه ، يقول : (الجيم) معناه الارتفاع ، وحرف (الباء) معناه البيت وحرف (اللام) يرمز الى الملاصقة . والمعنى المؤلف من الحروف مجتمعة : (بيت مرتفع ملاصق للسحاب او للأرض) ، وهو تصور صحيح ومقبول عن (جبل) .

ويحل كلمة (سمك) الى (كف الماء القوى) ، هكذا : (السين) معناه الدعامة وهو يرمز الى مطلق القوى . (والميم) ترمز الى المياه . (الكاف) بمعنى الكف وهو يرمز الى مطلق التبسيط فى صغر . وهذا ايضا تصور مقبول وصحيح عن (سمك) .

ومازالت الاعتراضات تتوالى على الشيخ العلايلى (١) : بأن الحرف وان أوحى بجزء من المعنى ، الا أنه لا يملك التعبير عنه بانفراده ، ومعنى ذلك أن الحرف بمفرده تنعدم قيمته التعبيرية ، وان أوحى جرسه بشىء قريب من المعنى .

ومن علماء اللغة من أنكر القيمة التعبيرية للحرف الواحد ، صراحة ، ويرى « أن الطبيعة عينها ميالة الى الثنائية ، لا الى الأحادية » كما يتوهم بعضهم أن الانسان الأول بدأ يتكلم بحروف منفصلة ، لأن الحروف المنفصلة لا وجود لها الا فى جدول الأبجدية ، أى فى الكتابة لا فى اللفظ ، والسبب : أن أعضاء النطق عينها لا تخرج للتكلم (حروفا صامتة متفرقة) بل مقاطع مركبة من الصامتات ، تحركها الصائتات » (٢) .

وهذا الرفض المطلق لا نوافق عليه ، اذ أن لغتنا قد عرفت فعلا قيمة تعبيرية للحرف الواحد ، كما اوحت بفروق دقيقة بين حرف وآخر ، قرب مخرجهما أو اتحد .. كالفرق بين حروف (الحلق) الستة — الهمز والهاء ، والعين والحاء ، والغين والخاء — وتفاوت المعنى بين التعبير بالحاء او الخاء ، كما فى قوله تعالى : **« فيهما عينان نضاختان »** (٣) وفى الأثر « كل اناء بما فيه ينضح » ففى الخاء شدة وقوة ، وفى الحاء ضعف ورخاوة ، مع انهما

---

(١) فى التطور اللغوى ص ٩٨ .

(٢) معجميات عربية سامية ، للأب مرمرجى الدومنكى ص ٩٨ ، وذكر (فندريس) مثل ذلك فى كتابه (اللغة ص ٢٣٦) .

(٣) الرحمن : ٦٦

(الخاء والحاء) حلقيان الا ان الآية عبرت عن شدة النضخ وافاد الأثــر رخاوته .. فضلاً عن ان هناك من الحروف ، ما زال امره محيراً : أفرغ من محتواه ام وضعته العرب كذلك كحروف العطف (الواو والفاء) وحرف الجر (الباء) .. فنحن نؤيد ان الحرف استعمل واستقل بقيمة تعبيرية في مرحلة معينة ، حتى واكبته اسباب حياتية ومعيشية أخرى ، فنقلته مع صاحبه والمعنى الى دور ارقى من ادوار الحياة على سنة التدرج الطبيعى ، واحيانا الى العكس .

واحدث الآراء اليوم هو القائل : بأن اللغة نشأت كغيرها من الظواهر الاجتماعية نشأة ساذجة .

ثم تطورت بمرور الزمن وتتابع التجارب ، وقد أدى تباين المشاهدات التجارب وتنوعاتها،واختلاف البيئات والأوساط والطبائع الى اختلاف اللغات.

من أسرار العربية :

اللغة — اذن — لم تبدأ — في أول امرها — بالمنطق والفكر ، ومن ثم تبعنا المنهج الوصفي في تتبع تأريخها ومحاولة الكشف عن حقبها السحيقة ، ولم نتبع المنهج الفلسفي الاغريقي الذي ادعى ان اللغة منطقية .

وتنفرد مجموعة اللغات السامية بميزة ظاهرة ، هي الاعتماد على الجذر والاشتقاق وفي لغتنا العربية نجد ان كل مجموعة تشترك في الجذر الاصلي ومعنى عاما يؤلف الطبقة الأصلية المشتركة لمفردات المجموعة . وثبات الحروف الاصلية يساعد على كشف العلاقات بين الفاظهـا :

فالصديق والصداقة .. من مادة (الصدق) . والعدو ، وعدا واعتدى .من (العدوان) وهو التجاوز في الظلم .

ومحصل ذلك : « أن المعاني العامة أو الكلية تتجمع في مجموعات من الالفاظ هي اشبه بالقبائل العربية ، ويبقى في اللغة دائما عنصر خالد ثابت في مادة الألفاظ .. وفي معانيها » (١) . وبقيت محافظة على انسابها مهما نأت ديارها .

وحين لمس علماؤنا القدامى المناسبة بين اللفظ والمعنى اشاروا الى تلك الظاهرة ، وتتبعوها من قديم : وعقد لها ابن جني فصلا في خصـائصه ،

---

(١) عبقرية اللغة العربية ، للاستاذ محمد المبارك ص ١٩ .

بعنوان (باب إمساس الالفاظ اشباه المعانى) (١) ، ذكر فيه : ان الخليل ابن احمد ، وسيبويه ، قد نبها عليه ، وان جماعة اللغويين قد تلقته بالقبول .. وحددوا الأماكن التى تكون فيها هذه الظاهرة واضحة جلية .

كما تظهر فى الالفاظ التى تحكى اصواتا ، كخرير الماء ، وازيز القدر .

أو فى المصادر التى تتابع حركاتها ، كالغليان ، والدوران ، والجمزى والبشكى .

او فى حروف اذا تصدرت الفعل نقلته من حال الى حال : فالفعل (غفر) يفيد ثبوت المغفرة ، وحروف الاستقبال ، تنقله الى طلب المغفرة ورجاء تحقيقها فى (استغفر) .

كما تظهر فى اختيار اللفظ المناسب للحدث قوة وضعفا ، حذوا لمسموع الاصوات على محسوس الاحداث : فالنضح (بالحاء) لرش الماء برقة ، والنضخ (بالخاء) لشدة فورانه وقوته ، اذ فى الحاء لين ورخاوة ، والخاء تزيد عليها شدة وقوة .. ومن هنا نلمح سر الاعجاز فى التعبير القرآنى عن متع الجنة ونعيمها : « **فيهما عينان نضاختان** » بالخاء ، وفى الاثر (كل اناء بما فيه ينضح) بالحاء . وايضا مثل : (خضم) لاكل الشىء الطرى ، و (قضم) لاكل الشىء اليابس الجاف : اذ فى الخاء رخاوة ، وفى القاف صلابة . ولله در أبى ذر — رضى الله عنه — حين صاح منكرا على الحكام نعيمهم وترفهم وشظف عيش رعيتهم : (ويخضمون ونقضم ، والموعد الله) .

بل عد علماء اللغة من لطيف صنع العرب وحكمتهم اختيار الحروف وتشبيه اصواتها بالأحداث المعبر عنها بها ترتيبا ، وتقديم ما يضاهى اول الحدث ، وتأخير ما يضاهى آخره ، وتوسيط ما يضاهى أوسطه ، سوقا للحروف على سمت المعنى المقصود ويمثل ابن جنى لذلك بحروف (بحث) :

(فالباء) لغلظها تشبه بصورتها خفقة الكف على الأرض ، و (الحاء) لصحلها تشبه مخالب الأسد وبراثن الذئب ونحوهما اذا غارت فى الأرض . و (الثاء) للنفث والبث للتراب (٢) .

---

(١) الخصائص ٥٤٤/١ .

(٢) الخصائص ٤٥٦/١ .

وأكثر من ذلك ، نجد أن المعنى العام باق مع تقاليب حروف المادة ، وقد نبه على ذلك القدامي كالخليل بن أحمد ، وابن دريد ، والفارسي ، وسماه ابن جني بالاشتقاق الأكبر . والمادة الثلاثية تعطي ست مواد في تقاليبها ، والرباعية تعطي أربعا وعشرين ، والخماسية تعطي مائة وعشرين . وقد تستعمل كل التقاليب أو بعضها أو تهمل كلها لاهمال الأصل . فتقاليب (سلم) الستة تفيد معنى السهولة والأصحاب والملاينة .

وتقاليب (جبر) تدور حول معنى عام هو الشدة والقوة (١) في (جبر جرب ، بجر ، برج ، ربج ، رجب) .

ويرى الشيخ العلايلي ، أن : « القاعدة تقضي بوجود جامع معنوي بين المقاليب الستة ، لايمكن أن يتخلف ، وان كان على بعد » (٢) .

وهكذا ظل الاشتراك في كل الحروف أو بعضها ، مع الصلة الصوتية السبيل لمعرفة الأصل ، وفي معجم مقاييس اللغة لابن فارس الحشد الهائل والأمثلة الوفيرة لتبيان ذلك ، اذ قد شارك أصحاب المعاجم في جمع الكلمات المشتقة من مادة واحدة في باب واحد ، وزاد عليهم بتتبعه لمعاني الباب الواحد ، وارجاعها الى أصل واحد ، أو عدة أصول من المعنى .

ولذلك فنحن لانذهب مذهب الأب مرمرجي الدومنكي — وهو مسبوق في ذلك الرأي — حين ينفي وجود علاقة طبيعية بين الصوت وحروف الكلمة ، وبين « المعنى المتعلق بها ، لأن الأصوات مجردة ليس من طبيعتها ما يجعلها دالة حتما على الشيء الفلاني ، أو النحوي الفلاني ، وانما تنشأ الصلة بين الصوت ومعناته اتفاقا ، أو بارادة المتكلمين عن طريق السماع أو الاستعمال ... » الى أن يقول : « اننا لا نجحد أن لبعض الكائنات دويا ، وللحيوانات أصواتا ، بيد أن الناس يحاكون هذا الدوي ، وهذه الأصوات بطرق متباينة ، اذ أن كل فريق يتوهم سماع نوع من الدوي والصوت فيحاكيها ، طبقا لهذا الوهم » (٣) ونقول له : حسبنا الدوي والأصوات وتوهم المتوهمين ، ليصوغوا منه ما يفهمون وما ينطقون .

---

(١) الجمهرة لابن دريد ١ / ٢٠٧ ، والخصائص ١ / ٥٢٥ .
(٢) مقدمة ، للعلايلي ص ١٤٩ .
(٣) معجميات عربية سامية ، للأب مرمرجي ص ١٠٢ .

وقد بهرت هذه الظاهرة العجيبة فى لغتنا علماء اللغة ، وهى وشائج القربى والصلات الواضحة بين المجموعات اللغوية ، سواء اشـــتركت فى حرفين او فى حرف واحد مما يوحى بأن القول بالأحادية فى نشأة اللغة له أساس : ثم تدرجت من هذا الدور نحو الاكتناز ، لتفى بما يطلب منها تبعا لمقتضيات التطور .

فالكلمات المشتركة فى الحرفين (ن ، ف) تدور حول معنى الخروج ، مثل : (نفث ، نفح ، نفخ ، نفد ، نفذ ، نفر ، نفس ، نفع ، نفق ، نفل ، نفى)

وكل ما فيه حرف الغين (غ) يدل على الغموض والاستتار ، مثـــل (غاب غار غاص غاض غام غرب غمض غم غش غز غص غن غبر غبن غبق غفا غطى غرق غمر غفر) ...

وفى مقاييس ابن فارس الشيء الكثير من ذلك كما قلنا ..

وكانت اشارات علمائنا القدامى والمحدثين الى ذلك ايحاء وباعثا حثيثا بضرورة معرفة الرأى فى نشأة اللغة العربية والقول بالثنائية أو الثلاثية .

أن الأقدمين ـــ من علمائنا ـــ لم يشيروا صراحة الى القول بالثنائية وانها أصل الوضع ، وانما كان بحثهم تاريخيا ، يرجع باللغة الى عهود تحاول معرفة تدرج ألفاظ اللغة وتطورها ، حتى استقرت فى طورها الأخير الى صورها وأشكالها المرضية والمعبرة والمفيدة .. وازدادت الأبحاث عمقا عند المحدثين فى ضوء أبحاث المجموعات اللغوية الأخرى ، وبخاصـــة فى الســـاميات .

* * *

نظرية الثنائية

النظرية الثنائية ، او المذهب الثنائي في اللغة ، يقوم على اعتبار الأصول اللغوية — في الأسماء والأفعال — ثنائية : أي يتركب كل منها من حرفين أساسين وأن الأصول الثلاثية وما فوقها مستنبطة من تلك الأصول الثنائية .

ويرى الأب مرمرجي الدومنكي أن الجذر الثنائي يشمل المجموعة السامية في عمومها ، يقول : « الثنائية « Bilitteralime هي النظرية القائلة بأن (الأصول) في العربية ، وكذلك الحال في أخواتها السامية : ليست الألفاظ ذوات الحروف الثلاثة ، بل ذوات الحرفين ، اذ من شأن الثلاثيات أن ترد الى الثنائيات » (١) .

وجورجي زيدان يرى « الثنائية » في النشوء اللغوي بالاستقراء ، فيذكر أن الألفاظ الدالة على معنى في نفسها ، يرد معظمها بالاستقراء الى أصول ثنائية احادية المقطع تحاكي أصواتا طبيعية » (٢) .

اي ان الثلاثي وما فوقه يرد الى ثنائي سابق ، لافي الاشتقاق فقط كما فهمه الأقدمون حين ذهبوا يطبقونه في الابدال وتعاقب الحروف ، بل في النشوء اللغوي ايضا .

ويشير زيدان الى بعض اسباب نشأة « الثنائية » ويؤكد الحصر والاستقراء ، يقول : « لغتنا مؤلفة من اصول محصورة عدا ، أحادية المقطع ، معظمها مأخوذ عن محاكاة الأصوات الخارجية ، وبعضها من الأصوات الطبيعية ، التي ينطق بها اللسان غريزيا » (٣) .

والشيخ العلايلي يرى الثنائية دورا ثانيا من أدوار اللغة في حياة الانسان ، الذي حاكى الطبيعة بقصد ، أو بغير قصد ، فاكسبته المحاكاة

---

(١) المعجمية العربية ص ٦ .
(٢) الفلسفة اللغوية لجورجي زيدان ص ٣٨ .
(٣) المصدر السابق ص ٣٤ .

أكثر المقاطع الثنائية التي يمكن فرضها ، وبخاصة اذا كانت ناشئة عن ضم بعض المقاطع الأحادية-التي يفضلها التعبير » ...

ويقرر الشيخ العلايلي — ايضا — ان (المعتل) هو ثنائي لفظا ، وان كان ثلاثيا خطا في العربية : اى أن المعتل هو ثنائي الحق بالثلاثي ، وانه اقدم ما حفظت اللغة من كلمات العهود السابقة (١) .

ويلاحظ أن الشيخ العلايلي — كما ذكر الدكتور عبد الصبور شاهين في دراسته الواعية — لا يؤسس تصوره للثنائي على تصوره للأحادي ، بمعنى انه لم يتبع في الواقع وجود كلمة « أحادية » صارت الى الثنائية على أساس افتراضه السابق . ومن ثم نرى أفكاره تتكامل نظريا فقط ، دون أن يستطيع تأسيسها على تكامل لغوى » .

لكنا نلتمس العذر للشيخ ، ونبيح له التصور الذكي ممزوجا بخيال غير جامح في فترة يعلوها الضباب ، ويلفها صمت التاريخ (٢) .

ويصور الأب أنستاس الكرملي « الثنائية » وطريقة اكتناز الكلمات وتدرجها بأنها : « تطورت في وضعها من هجاء واحد (اى مقطع) اصلا ، الى مضاعف من ثلاثي ورباعي : فيكون ثلاثيا اذا لم تتخيل الحركة في الشيء، ورباعيا اذا تخيلتها فيه . وعلى هذا النحو تطور الهجاء الواحد (صر) بسكون الراء الى (صر) بتشديدها ، والى (صرصر) ، ثم تطور في اتجاه آخر (صار) ، أو (صرى) ، وبذلك عرف المضعف والأجوف والناقص ثم المهموز(٣) .

ومعنى ذلك ان الثنائية كانت وفيرة وكثيرة في وقت ما من عهود اللغة اذا لم تكن هي الأصل ، ثم تحول عدد كبير منها الى الثلاثي بالاضافة أو التضعيف ، وليس هذا خاصا بلغتنا العربية ، وانما هو قدر مشترك بين الساميات .

واشار (الاقدمون — كما قلنا — الى مبدأ « الثنائية » ، ولكن لم ينصوا عليها صراحة ، وبدأ بها أصحاب المعاجم مواد قواميسهم عند ترتيبها : فبدأ الخليل بن أحمد (١٧٥ هـ) بالثنائي في معجم (العين) ،

---

(١) المقدمة ص ٣٠ .
(٢) في التطور اللغوى ص ١٢٧ .
(٣) نشوء اللغة العربية ص ٢٠ .

واحتذاه ابن دريد (٣٢٥ هـ) فى معجم (الجمهرة) ، والأزهرى (٢٨٢ هـ) فى معجم التهذيب ، والقالى (٢٨٨ هـ) فى معجم (البارع) ، وابن سيده (٣٩٧هـ) فى معجم (المحكم) (١) .

وحددوا الثنائى بأنه ما تكون من حرفين ولو مع تكرار احدهما ، وسموا الثنائى المضاعف : الثنائى فى الخط ، والثلاثى فى الحقيقة : الثلاثى الصحيح . والثلاثى المعتل : الحواشى والأوشاب (٢) .

ويكاد الأب مرمرجى أن يلزمنا القول بالثنائية ، كما ألزم نفسه بها : فالرباعيات عنده « ليست مجردة كما يقول الصرفيون : بل هى ثلاثيات مزيدة ، والثلاثيات الشاملة : (المثال والاجوف والناقص والمهموز والمضاعف ومكرره) قابلة جميعها الرد الى (الرسي الثنائى) مع استمرار المناسبة المعنوية بينهما . أما ما يتعذر رده من الثلاثى الى الثنائى فيعزى ذلك الى فقدان فحاويها الاولية مثلما ضاعت ، أو لم ترد الأصول الثلاثية لبعض المزيدات أو المشتقات ، التى بلغ عددها الثمانمائة او اكثر » (٣) فالرساس العربية عنده أوفر من غير العربية ، والثلاثى وما فوقه توسعات اشتقاقية للرساس الثنائية التى بدأت بها نشأة اللغة ، وعنها صدرت جميع التوسعات والاشتقاقات ، حتى صارت العربية عنده بها « أوفر ثروة من لغات العالم أجمع » (٤) .

* * *

● ويؤنس المقام أن نذكر بعض أمثلة ذكرها المؤصلون للثنائية تزيد الأمر ايضاحا ، وطرق اكتناز الثنائية لترتقى الى أعلى منها :

يقول جورجى زيدان : ان الجذور الثلاثية ترتد اصلا الى جذور ثنائية ، هى حوامل المعانى ، وليست الثلاثية سوى وسيلة لتنويع المادة اللغوية ، وتطوير الاستعمال الدلالى .

---

(١) راجع المعاجم اللغوية د . ابراهيم نجا .

(٢) المصدر السابق .

(٣) هل العربية منطقية ، للأب مرمرجى ص ١٤٥ .

(٤) معجميات عربية سامية ص ٧٩ .

فالأصل اللغوى « قط » حكاية لصوت القطع ، وهو ثنائى تأتى توسعاته بمعناته ، مثل : (قط ، قطع ، قطب ، قطف ، قطل ، قطم) وكلها أفعال بمعنى (القطع) من (قط) ..

وأيضا مقارب المادة (قط) وهو « قص » يفيد تثليثه القطع ، مثل (قصب ، قصر ، قصف ، فصل ، قصم) وأيضا مجانس (قص) وهو « كس » بمعنى القطع يأتى منه (كس ، كسر ، كسع ، كسم) . ومثله : « جذ » بمعنى القطع ، يأتى منه « جذ ، جذب ، جذر ، جذف ، جذم) وأيضا : « جز » يأتى منه بمعنى القطع : (جز ، جزأ ، جزر ، جزح ، جزع ، جزل ، جزم) (١) . وكل ذلك من باب القطع ، وهى ترد الى أصل واحد ، هو حكاية صوت .

وذكر الدكتور عبد الصبور شاهين ان هذه الأمثلة كلها نقلها جورجى زيدان عن كتاب المفتاح للسكاكى (٢) . اى أن كتاب المفتاح اشار الى الأصول الثنائية المشتركة فى المعنى العام ، وما ينوع المعنى من زيادة عليه .

والأب مرمرجى يرى : أن كلمة (ح ج) أصلها ثنائى ، لاسم صوت ينطقه المجهدون تخفيفا من عنائهم (٣) و «ثب» أصلها «ثب» بمعنى الحركة عموما (٤) وعنده أن : « نهى ، نهنه ، نهر) بمعنى الزجر (٥) .. أصلها (نه) بمعنى الزجر .

ولمعرفة الأب مرمرجى بكثير من اللغات السامية أمكنته المقارنة اللغوية بين الساميات بالقاء الضوء على كثير من الأصول الثنائية التى بنى عليها نظريته فى « الثنائية » .

ولا ينكر أحد اهمية هذه الدراسات المقارنة ، اذ أنها تكشف كثيرا من الغامض وما خفى على الكثيرين . ولذا نظر لكثير من الأفعال التى يقال

---

(١) الفلسفة اللغوية ص ٩٨ .
(٢) فى التطور اللغوى ص ٨٦ .
(٣) المعجمية العربية ص ٤٨ .
(٤) معجميات عربية سامية ص ٩٩ .
(٥) المعجمية العربية ص ١٣٠ .

جانها ثلاثية في العربية بنظيرها في السريانية مما جاء على الثنائية فقط ، نذكر ان في العربية (حم)بالتشديد ، يقابله في السريانية بالتخفيف : و (مص ، مس) بالتشديد يقابلهما (مص ، مس) بالسكون . ويردف بأن « الثنائي وارد في كل الساميات متصفا بمعنى حقيقى وتام » (١) .

وارجع المضاعف الرباعي مثل : (مرمر ، ترتر ، ذبذب ، لعلع ، لألأ . .) الى ثنائيين مكررين . . ومن هذا شيء وافر في العربية وكذا اللغات السامية . . ففى السريانية (bal-bal) (zal-zal) على وزن زلزل ، وبلبل ، وقد أمكنه جمع ٣٥٠ مادة منها في العربية الفصحى وحدها ، ويوجد أكثر منها في اللهجات (٢) .

واكثر من ذلك : ان رسالة الالفاظ السريانية تفترض وجود الثنائية دون شعور وقصد منها (٣) .

طريقة اكتناز الالفاظ :

ومن علمائنا القدامى من اشار الى طريقة اكتناز المواد الثنائية لتصبح ثلاثية ، بزيادة حرف ، كابن فارس وابن جنى ، في مثل : (نب) فيصبح (نبأ ، نبج ، نبح ، نبذ ، نبر ، نبس ، نبش) مع بقاء المعنى العام .

وعندالأب انستاس الكرملي : أن الهجاء الواحد (المقطع) ذا المعنى ، قد يزيد عليه هجاء أو أكثر ، مثل (رم) بالسكون فيصبح (ثرم ، جرم ، حرم ، خرم ، شرم ، صرم ، عرم ، غرم) . . ومثل : (نب) ومنها (نبأ ، نبت ، نبث ، نبيح ، نبح ، نبذ ، نبر ، نبز ، نبس ، نبش ، نبض ، نبع ، نبغ ،) (٤) . وهى نفس طريقة القدامى كما أشرنا .

ويطبق الأب الكرملي النظرية على اللغة اللاتينية ، لأن الكلم عنده مبنى على محاكاة الطبيعة وعلى الهجاء الواحد غالبا ، فيقول :

---

(١) معجميات عربية سامية ص ٩٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٩٧ .

(٣) المصدر السابق ص ١٠٠ .

(٤) نشوء اللغة العربية ص ٣ .

« قد يتفق مصطلح العرب ومصطلح أبنـاء الغرب اذا اتفق الخاطران في توهم صوت الطبيعة ولا يكون هذا الامر الا اذا كان ثم هجاء واحد ، او هجاءان اثنان لا اكثر . فمثال الهجاء الواحد قول العرب (رد) بالتشديد ولا جرم ان أصله (رد) بفتح وسكون ، وهو في اللاتينية Raddere ومن المعلوم ان Ere كاسعة (ما يزاد في الآخر) تكسع بها كثير من افعالهم ، اذن Raddare ليست الا (رد) العربية (١) .

والشيخ العلايلي يرى ان انسان الدور الثاني استخدم معاني الجدول الهجائي الفنيقي ، وضم بعض المقاطع الاحادية ليعبر عما في نفسه من معان ، ويمثل بلفظه (عبى) وهو ثنائي في صورة ثلاثي ، أو ثنائي الحق بالثلاثيات « فان العين تدل على الحيوان الزئيري . والباء تدل على البيت ، وكـأن المعنى : حيوان البيت القوي ، الذي هو كناية عن الرجل . وقدوردت في العربية كلمات مثل (دد) بمعنى اللهو ، و (ببة) للطفل السمين او لعبة ، ويردهما الشيخ العلايلي الى (ددا) المعتلة ، والى (البو) بمعنى ولد الناقة أو جلد يحشى اي شيء لتتسلى به الناقة على ولدها (٢) .

واحتفظت القواميس العربية بثنائيات قديمة ، كاسماء الاسـرة : (أب ، أم ، اخ ، اخت أم ، ابن ، بنت ، حم) . واسماء الاعضاء : (يد ، دم ، شفة ، لثة) .

وعلى مر العصور ، وترقي الانسان ضاقت الثنائيات عن التعبير عن المعاني ، فكان لابد من التوسع في صور لفظية جديدة ، لتلبية الحاجات الآتية والمستقبلة ، فكان لابد من الاكتناز والتوسع في الألفاظ الثنائية ، لتـدل على معان اضافية .

« ففرع العرب بزيادة حرف على الثنائي ، أو صوت ثالث ؛ أدى الى صورة لفظية جديدة (٣) .

فلجأت العربية الى طرق ادت الى اكتناز الالفاظ بالمد ، والتشديد ، وقد

---

(١) المصدر السابق .
(٢) مقدمة ص ١٣٣ .
(٣) الألسنية العربية لريمون طحان ص ٨٤ .

تداخل بابيهما . ايضا لجأت الى تحويل المضاعف ناقصا او يحول المضاعف اجوفا ، او يتخلى الناقص عن حرفه الأخير لصالح حرف صحيح ، والأمثلة على الترتيب (مص ، مصى ، شد ، شدى) (رب ، ربا) (طم ، طمـا) . (مد ، ماد . ضر ــ ضـار) (رسا ، رسب) . (سما ، سمق) . (محا ، محق) . (رخا ، رخص) .

– ويوجز الأب مرمرجى طرق توسع الثنائيات ، امـا :

(أ) بتكرار الحرف الثانى ، مثل : أم ــ امم ، جل ــ جلل .

(ب) واما بالتكرار والمد معا ، مثل : از ــ آزار ، اط ــ اطيط ، بر ــ برور .

(جـ) واما بزيادة تاء فى الآخر ، مثل سك ــ سكة ، تل ــ تلة ، جب ــ جبة .

(د) واما بالتكرار والمد والتاء معا ، مثل : ضر ــ ضرورة ، كـز ــ كزوزة كزازة .

وكل هذه التوسعات المختلفة التوسع متضمنة منطوق « الدرس الثنائى » (١) المشتقة منه ، وقد احصى منها الأب مرمرجى ٣٢٧ مادة .

وهذه التوسعات فى الكلمة تتخذ مواقع مختلفة :

(أ) فتسمى الزيادة تتويجا او تصديرا ((Prefixe))اذا وقعت فى اول الكلمة مثل (جرم ، حرم ، خرم ، شرم ، صرم ، عرم ، غرم) . . تشترك فى (الراء والميم) وفى المعنى العام لها .

(ب) واذا وقعت آخر سميت : تذيلا ، أو كاسعا Suffixie وهـذا هو الغالب ، مثل : (قطب ، قطع ، قطف ، قطل ، قطم) . . تشـترك فى (القاف والطاء) وفى المعنى العام وهو الفصل .

(جـ) واذا وقعت وسطا ، سميت : اقحاما ، أو حشوا in Fixe (٢) . مثل (قحم ، قرم ، قسم ، قصم ، قضم ، قطم ، قلم ،) تشترك فى حرفى (القاف والميم) والمعنى العام فى الشق والقطع .

---

(١) معجمات عربية سامية ص ٧٨ .

(٢) نشوء اللغة ، والمعجمية العربية ص ١٣٥ .

ويزيد الأب مرمرجي بأن المقرر عند علماء العربية قديما وحديثا ، وعند الأجانب من مستشرقين — علماء السامية — ومستعربين أن الزيادة تجري بالتنويع والاقحام والتذييل . وفي كل حال من الأحوال يتم الأمر على سبيل الأغلبية ، أي بالسماع ، وليس بقياس محكم » (١) .

ولا مانع من أن يكون العرب قد اعتمدوا وتعمدوا تسكين الحرف الثاني في (الثنائية) ، ثم شددوه ، ثم فكوا تشديده ، واستبدلوا ثاني المشدد بحرف يختلف عنه ، مرورا من الثنائي الى الثلاثي وغيره ، مثل (النون والفاء) بمعنى الخروج ، مع تخصيص حاصل بفعل تخصيصها ، فقالوا : (نف ، نف ، نفث ، نفح ، نفخ ، نفد ، نفذ ، نفر ، نفس ، نفع ، نفق ، نفل ، نفى).

وما قرره الاقدمون من الزيادة بالحروف على الرباعيات والثلاثيات ، يسوغ — عند الأب مرمرجي بكل حق وصواب تطبيقه في الثنائيات . ومثل لما زاد على الثنائي بالأمثلة الآتية : (بقطين ، من قطن اى أغنى ، وترفل من رفل ، وزنبيل من زبيل ، وعنصل من عصل ، وذمعط من ذعط .. وبلسن من بلس ، وعبدل من عبد .. وعد من ذلك شيئا كثارا في العربية وبقية الساميات) (٢) .

فالزيادة والترقي من الأقل الى الأكثر ، كانت طريقا مألوفا ومعروفا للعرب في توسيع المواد وزيادتها وتنويعها ، لتقابل المعنى الجديد . . كما كانت هناك زيادات متنوعة تجري بضرب من الاعتباط ، اى لدواع غير داعي الدلالة على معنى خاص ، او على دور معين ، كما ذكر الأب مرمرجي . وضرب مثلا لذلك :

بالزيادة للالحاق ، لمحض الموافقة بين وزن وآخر ، ليعامل معاملته ، مثل : (قعدد ، وجلبب ، وشملل) في التذييل . و (حنظل وجوقل ودهور) لزيادة النون والواو والهاء حشوا .

وزيادة للغنة ، مثل : قنبرة من قبرة . وانجاص من اجاص ، وخنزير من خزير . وزيادة لتقوية الحركة ، دون قصد معنى معين ، مثل : (برع من برأ ،

---

(١) معجميات ص ١٠٥ .
(٢) المصدر السابق ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

وينسب اليه (برني أي براني) و (توقع من توقى) ، (شفع من شفى) و (بدأ وبدع من بدأ) .

وزيادة لعذوبة اللفظ وتسهيله مثل (يا ابتي ، وعصاتي ، وحد ، بدل من يا ابي وعصاي وحد) . و (مدني وقطني) باقحام النون . و (لعلت ، ثمت ، ربت) بالحاق التاء .

وزيادة لاقامة الوزن في الشعر ، نحو (تبيضضي) عوض تبيضي .

وزيادات أخرى تجري دون قصد اشتقاقي ، مثل : (خوارنة ، جمع خوري) و (ابهات وأمهات) باقحام الهاء . وكذلك النسبة إلى (صنعائي ، وجوائي ، وبراني ، وصيدلاني) باقحام النون .

ويخلص من ذلك الاب مرمرجي الى ان اللغة تتبع السنة الطبيعية ، وتخضع لاحوال الانسان المختلفة ، ولاعضاء نطقه ، وللتطورات الاجتماعية والمؤثرات . كما أنها في بعض اجزائها قياسية منتظمة محكمة ، وفي البعض الآخر سماعية : لا ضابط ولا قيد لها ، وقواعدها ليست قواعد حسابية رياضية (١) .

وكثيرا ما سمعت الشيخ العلايلي يطلق على قواعد العربية ضوابط لا قواعد ، تأييدا لذلك .

ولتوفر الاب مرمرجي على دراسة الثنائية ، وطول نظره فيها ، وتقصيه لها ومزاولتها ، امكنه بعد التقصي والاختبار ان يصنف الحروف التي تقبل الزيادة على الرساس الثنائية من باب الأغلبية والاطلاق ، كما يلي :

(أ) حروف تصلح ان تكون متوجة ، ومقحمة ، ومذيلة وهي : (أ ، ت ، ر ، ع ، ل ، م ، ن ، هـ ، و ، ي) .

(ب) حرفان يصلحان للتتويج والتذييل ، وهما الحاء ، والشين .

(حـ) حروف تستخدم للتذييل ، وهي (س ، ب ، ذ ، ك ، ق) (٢) .

ثم افاض في شرح ذلك وتفصيله في مصنفاته اللغوية الكثيرة ، تأييدا لدعواه

---

(١) المصدر السابق ص ١٠٧ ، ١٠٨ بتصرف .
(٢) فقه اللغة العربية د . ابراهيم نجا ، ص ٨٣ .

ليثبت دعائم الثنائية التى نصب نفسه محاميا لها ، ومدافعا عنها طوال حياته .

ومن استعراض الأمثلة السابقة يمكن القول بأن الألفاظ فى العربية جاءت من أصلين أساسيين ، خصهما بمعنى واضح حرف ثالث ، أى أنها عرفت عبر تاريخها الحافل مفاهيم تعود الى أصول غير ثلاثية ، وان ارتكزت بعد تطور وأدوار — على أسس ثلاثية .

والحرف الثالث الذى حدد المراد من المعنى العام ، تنوع حسب ما يتطلبه المقام :

« فان أراد العرب ابانة شيء عن شيء وفصله عنه مع معاناة ومشقة قالوا : (قطع) وان أحبوا أخذ شيء من آخر دون معاناة أو مشقة قالوا : قطف ، لقوة العين وضعف الفاء » (١) اللهم الا اذا عن غرض بلاغى فيتجاوز عن ذلك ، كقول الحجاج بن يوسف : (انى لأرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها) ، فلشدته وهوان أصحاب الرؤوس ، جاء التشبيه بالزرع والقطاف .

ويعزز ابن دريد فى (جمهرته) وجهة نظر الفريق القائل بأن الكلمات المشتركة فى حرفين وفى معنى عام يضمها كانت فى الأصل ثنائية المقطع نظرا الى الصورة الملفوظ بها ، دون التفات الى الحرف المكرر بمثابة حرفين ، وان كان فى الحقيقة ثلاثيا . يقول ابن دريد : « والثنائى الصحيح لا يكون حرفين البتة الا والثانى ثقيل (أى مضعف) حتى يصير على ثلاثة أحرف . . . اللفظ ثنائى والمعنى ثلاثى . وانما سمى ثنائيا للفظه وصورته ، فاذا صرت الى المعنى والحقيقة كان الحرف الأول أحد الحروف المعجمة ، والثانى حرفين مثلين أحدهما مدغم فى الآخر ، نحو (بت يبت بتا) بمعنى قطع ، وكان أصله بتت فأدغموا التاء فى التاء ، فقالوا : « بت » وأصل وزن الكلمة فعل ، وهو ثلاثة أحرف ، فلما مازجوا الادغام رجعت الى حرفين فى اللفظ ، فقالوا : بت ، فأدغمت احدى التاءين فى الحروف المعجمة (٢) .

« فالنظرة الى اعتبار المضعف الثلاثى ثنائى الصورة تبدو بجلاء ووضوح عند الأقدمين فى جمهرة اللغة لابن دريد ، وفى المقاييس لابن فارس ، بل ان

---

(١) المصدر السابق ص ١٠٦ .

(٢) الجمهرة ١ / ١٣ .

فى جمهرة اللغة لابن دريد ما يدل دلالة أكيدة على توثق النظرة عنــده : فانه عند الكلام على الثنائى يفهى القول على جميع مواده صحيحا أو معتلا ، قبل أن ينتقل الى الثلاثى » (١) .

والمحدثون تتبعوا هذه النظرية ونظروا لها بما هو وارد فى الساميات من ثنائيات مثل (حم ، مص ، مس) بالتشديد فى العربية بما يقابلهــا فى السريانية (حم ، مص ، مش) بدون تشديد للحرف الأخير (٢) .

الا أن الشيخ العلايلى يجعل الحرف المزيد على الثلاثى حلقة ثالثــة فى الدور الثالث من أدوار الانسان فى تدرجه نحو الرشد ، فعرف الكتابة وعرف الحروف وتنوعت حاجاته ، فجعل الحرف الثالث حشوا فى وسط الثنائيات ــ غالبا ليغطى مفاهيم جديدة ، فجعل من (قف) : (قطف ، غرف ، قذف) (٣) .

ولوفرة الشواهد والأمثلة فى هذا الصــــدد ، « أطلق بعض الباحثين المعاصرين القول (٤) بأن الذى يتفرس كلم العربية بانعام نظر ، يجــد أن معظم موادها أصلا يرجع اليه كثير من كلماته وان لم تقل كلها ، وذكر لذلك (فل) فانها تدور حول الشق والفتح : كفلح ، فتح ، فلح ، فلع ، فلى . وكذلك نجد ابن فارس فى كتابه (المقاييس) يذكر أن مادة (قط) تدور حول القطع .

* * *

(١)فقه اللغة العربية د . نجا ، ص ٨٥ .

(٢) معجميات ص ٩٨ .

(٣) المقدمة ص ١٤٤ .

(٤)فقه اللغة العربية د . نجا ، ص ٨٥ .

ثنائية وثنائيون

وهب مؤيدو « الثنائية » يدعمون أسسها ، ويرسون مبادئها ، ويسوقون شواهدها :

● فذهب بعضهم الى : « ان الطبيعة عينها ميالة الى الثنائية ، لا الى الآحادية ، لان أعضاء النطق عينها لا تخرج للمتكلم حروفا صامتة متفرقة ، بل مقاطع مركبة من الصامتات تحركها الصائتات » (١) .

● ويرى بعضهم أن القول بأن اللغة الانسانية نشأت بطريق المحاكاة. وهذا رأى من آراء كثيرة قيلت فى نشأة اللغة — يرسى مبدأ هاما من مبادىء « الثنائية » اذ ان هذا الراى كشف عن عدد كثير من الأصوات اللغوية فى مجموعاتها . ولوحظ أن جل الألفاظ التى نشأت عن طريق المحاكاة هو وضع ثنائى . ولذا قال كثير من الباحثين : أن أصل حكاية الأصوات فى اللغات السامية — ومنها العربية — هو ثنائى يعتمد على حرفين صامتين ، حين حاكى الانسان أصوات الطبيعة وغيرها من حوله بصيحاته وصرخاته الانفعالية ، وعبر بعد ما قلد عن حاجياته الطبيعية والحياتية .

ويرى الأب مرمرجى ان البرهان الحسى الجلى على وجود الثنائية هو : « فى أصل اللغة » ، يستخرج من العناصر الأولية للغة العربية ، وهى أسماء الأصوات ودعاء الحيوانات ، أو زجرها ، وبعض أسماء الأفعال ، فهى ثنائية ، ومنها كان بدء صوغ الفعل المضاعف ومكرره . دونك الالفاظ التالية — على سبيل المثال لأن منها فى اللغة شيء كثار — : « اف » كلمة تكره وتضجر ، و « آه » كلمة توجع و « به » و « بخ » كلمتان تقالان عند استعظام الشيء و « عس » « كلمة زجر للهر » (٢) .

وليس هذا خاصا بالساميات ، بل لاحظ العلماء — أيضا — أن لفظ « مو » فى المصرية القديمة والصينية يعنى (هرة) ، وجاء التوافق من أن الهرة سميت بالصوت الذى تحدثه .

---

(١) معجميات عربية سامية ص ٩٨ .
(٢) معجميات عربية سامية ص ٩٩ .

(وسواء اكانت المحاكاة لصوت إنسان : كالقهقهة ، والنحنحة ، والتأوه ، والتأفف) .

(أم كانت محاكاة لصوت حيوان : كالزقزقة ، والمواء ، والصهيل ، والزئير) .

(ام كانت محاكاة لصوت الطبيعة ويطلق عليها المحدثون نظرية (بو — وو) (Bow-waw) ، وذلك كحفيف الشجر ، وخرير الماء وصرير القلم وهزيم الرعد) ..

وليس (ماكس مولر Max Mueller) هو صاحب نظرية « المحاكاة» حين اشار اليها في محاضرته بلندن سنة ١٨٦٤ واعطاها اسما جديدا تعرف به هو (Ding-Dong) كما اشار بعض المعاصرين (١) . بل ان علماءنا القدامى عرفوها ، واشار اليها إبن جني (٣٩٢ هـ) وحكاها عمن سبقه ، ووصفها بالصلاحية والقبول ، حين قال : « ... وذهب بعضهم الى أن أصل اللغات كلها انما هو من الأصوات المسموعات ، كدوى الريح ، وحنين الرعد ، وخرير الماء ، وشحيج الحمار ، ونعيق الغراب ، وصهيل الفرس ، ونزيب الظبي ، ونحو ذلك ... ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد . وهذا عندى وجه صالح ، ومذهب متقبل » (٢) .

فابن جني يحكي عمن سبق ، وفي حكايته هذه دلالة قاطعة على أنه كان مذهبا مقررا وشائعا بين السابقين من علمائنا .

وارتضى الشدياق هذا الرأي ، وذكر له امثلة كثيرة تعزز رأيه ، في كتابه القيم (٣) .

وايد ذلك المستشرق الفرنسي (رينان) : في كتابه : (التاريخ العام للغات السامية) ، وذكر امثلة كثيرة توضح التشابه بين الأصوات اللغوية في مجموعتي اللغات الآرية والسامية (٤) .

---

(١) نظريات في اللغة لانيس فريحة ص ١٩ .
(٢) الخصائص ١/٤٦ .
(٣) سر الليال في القلب والابدال ص ٢٢ — ٢٧ .
(٤) مجلة كلية الآداب الليبية ع ٤ لسنة ١٣٩٢هـ .

والقول في نشأة اللغة من اقدم المشاكل التي جابهت عقل الانسان ، لانه امر يثير الخيال .

والحق الذي يقال بصدده ان كل النظريات في القول بنشـأة اللغة الانسانية الأولى ليست يقينية ، ولا يسلم بها العلم ، لانها حدس وخيال ، ونحن ندرسها على انها افتراضات قيد البرهان ، وان فسرت كل نظرية قدرا من الالفاظ فسيبقى قدر لا تتناوله هذه النظريات ، والسر :

أن اللغة لم تبدأ ــ كما ذكرنا ــ منطقية ، اذ لم يكن هناك منطق ولا فكر ، كما أن قضيتها ليست لغوية بحتة ، ولا تدخل في نطاق علم اللغـة (Languis Tic) وحده ، بل تتشـعب في نطاق (البسـيكولوجيا) (والانتروبولوجيا) ، والفلسفة .

فنظرية المحاكاة وان تعلق بها الثنائيون وفسرت جانبا ، فهي تعطيهم شيئا وسببا يؤيد وجهة نظرهم ، وعليهم سوق ادلة اخرى .

« ولكن يسجل لهم أن معظم الأصوات الثنائية كانت محاكاة لاصـوات الحيوان أو الطبيعة ، أو الأصوات التي تسمع عند مزاولة الانسان للاعمال التي تدل عليها الأصوات » (١) .

والنظرية تفسر ما يدل على المحسوس ويخرج عن دائرتها ما يـدل على المعقول .

● وتعلق بعض مؤيدي « الثنائية » الى أن (نشأة اللغة انما هي ثنائية المواد) أي أن قانون التطور يرشد الى أن اللغة نشأت أول أمرها ثنائية المواد ، بتركب كل منها من مقطع واحد مغلق (اى من حرفين أولهما متحرك وثانيهما ساكن) ، وحين دعت الحاجة الى التنوع والمزيد اكتنزت هذه المواد الى الثلاثية وما فوقها بالطرق السالفة وان المعنى العام كامن في الأصل الثنائي ، وما زاد عليه لم يزد المعنى الا تنوعا حسب الحاجة والمقتضى .

وحفلت المقاييس اللغوية لابن فارس بالأمثلة الوفيرة التي تؤيد ذلك ، وحذا حذوه الشدياق في كتابه : « سر الليال في القلب والابدال » ، وللدكتور أمين فاخر بحث قيم لدراسة معجمية احصائية ، في ثنائية الالفاظ في المعاجم

---

(١) المصدر السابق نفسه .

العربية ، وعلاقتها بالأصول الثلاثية هو بمثابة التطبيق للنظرية التي نحن بصددها (١) .

ويذكر الدكتور محمد مصطفى رضوان — في مقاله القيم عن الثنائية في اللغة (٢) طرفا من أقوال المستشرقين الذين يؤيدون « الثنائية » ، ويستشهدون لها بما في أخوات السامية ، يقول :

لقد طبق المستشرق الالمانى (فورست) النظرية الثنائية تطبيقا عمليا في معجمه الكبير الانجليزى العبرى . مؤيدا نشأة اللغة ثنائية المواد ، من مقطع واحد مغلق اى من حرفين : أولهما متحرك حركته قصيرة ، وثانيهما ساكن .

ويقول المستشرق الالمانى (جزينس) في كتاب له عن اللغات السامية، وقد شرح فيه الثنائية شرحا وافيا مؤيدا بالأمثلة : « ان ثلاثية الاصول اللغوية في الفعل والاسم تلتزم بدقة واطراد في اللغات السامية ... الى أن يقول : غير ان كثيرا من الأصول الثلاثية يمكن ردها الى اصول ثنائية ، نسميها : جذورا ، تفرعت منها جذوع ثلاثية وفوق الثلاثية .

والمستشرق الفرنسى (رينان) ، في كتابه — التاريخ العام للغات — يزيد الأمر وضوحا في هذا الصدد ، يقول : ان من بين الأصول الثلاثية انواعا من الافعال ، تعد ثنائية ولا تعد ثلاثية الا لاعتبارات صرفية ، تلك هي الافعال المضعفة والمعتلة التى لا يكون فيها لتكرار الحرف الثانى ، أو لاضافة حرف العلة تأثير يذكر في تغيير المعنى الاساسى الذى يفيده الاصل الثنائى ، وذلك نحو « نــد » فانه أصل ثنائى يفيد معنى الحركة او الابتعاد، سواء ضعف ثانيه ، فقيل : (ند) أو مد أوله فقيل : (ناد) اى تحرك أو تمايل من النعاس ، ومنه (تندد) الغصن ، اى تحرك . او مد ثانيه فقيل : (ندا) يقال : ندا الشيء ، بمعنى تفرق ، والابل النوادى ، هي الشوارد .

وان الافعال الثلاثية المركبة من حروف صحيحة نجد — في جميع

---

(١) أنظر ثنائية الألفاظ في المعاجم العربية . طبعة اولى .
(٢) مجلة كلية الآداب الليبية ع ٤ لسنة ١٣٩٢ هـ .

الحالات تقريبا — أن أحد احرفها الثلاثة أضعف من الآخرين ، وانه لايحدث في المعنى الأساسي الا تعديلا طفيفا (١) .

ومن ثم يبدو أن الأصل السامي الثلاثي يمكن رجعه في الغالب الى حرفين اساسيين أضيف اليهما ثالث ليس له في تغيير المعنى الأساسي الا تأثير طفيف ، وان الاصول الثنائية السامية هي العناصر البدائية التي لا تقبل النقص .

والقيمة التي تضيفها دراسة المستشرقين هي المامهم بلغات شقيقات للعربية ، وغيرها ، تبعد مدى الرؤية ، وتعلي من قيمة الشاهد ، وتقيم النظرية والتطبيق .

والاب مرمرجي يرى هذا الراي ، وكثيرا ما ذكره في مصنفاته ، ولخص في احدها بعض مباديء الثنائية وراى أن من نتائج هذه النظرية : ان المثال والأجوف والناقص « ما هي سوى مزيدات أو توسعات في الرس الثنائي الذي يجري فيه اول التوسع بتكرار الحرف الثاني منه ، أو بتشديده : اي بتكراره لفظا ووضع الشدة عليه كتابة ، وعادة يجري التشديد في اللغات السامية : اما لعذوبة اللفظ او تسهيله ، واما للمبالغة ، واما للتاكيد والتأييد » .

وعلى ذلك فالفعل (قام) مثلا ، اصله (قم) اشبعت حركة حرفه الاول ، مما يظهر في السريانية في كلمة (Iam) ولو تتبعت تصريف الفعل قام ، واتصاله بالضمائر ، لوجدت ان الأصل ثنائي وانه يدل على معنى تام في حالة الثنائية (٢) .

ويؤكد الاب مرمرجي ان من الادلة على وجود الثنائي في أصل اللغات ولا سيما السامية منها : « هو أن المضاعف العربي الذي يقال : انه مركب من ثلاثة احرف اصلية — لاتجد مقابله في السريانية الا بحرفين اثنين لا اكثر ، مثلا مقابل « حم » بالتشديد في العربية نرى في السريانية (حم) بالسكون ، وبازاء (مص ومص) (٣) .

(١) مجلة كلية الآداب الليبية ع ٤ لسنة ١٣٩٢ هـ
(٢) معجميات ص ٩٦ — ٩٨ بتصرف .
(٣) مجلة كلية الآداب الليبية ع ٤ لسنة ١٣٩٢ هـ

● ويرى بعض العلماء ان الثنائية طبيعية التكوين ، بمعنى ان « طبيعة الحرفين اللذين تتكون منها المـــادة الثنائية لها دخل كبير فى بنائهـــا على صورتها الثنائية ، اذ ان هذين الحرفين فى الغالب شديدان او رخوان او متوسطان بين الرخاوة والشدة .

ويرى كثير من علماء الفرنجة : ان المواد الأصلية المكونة من حروف شديدة هى على وجه العموم اقدم من المكونة من حروف رخوة او متوسطة ويرجح ان الاخيرة نشأت من الاولى بتخفيف الحروف الشديدة (١) .

ويؤيد ذلك ما ذكره (الشهاب الخفاجى) من اعجمية الكلمـــات التى تجتمع فيها حروف معينة ، مثل (جردقة ، وجلنيق) لصوت باب وكذلك : (صنجة وصولجان) . وأيضا : (نورج ونرجس) . وايضا : (مهندز وهندازة) . (وبست) اسم لبلدة (وسذاب وســـاذج) ، (وطاجن ، واصطبة) ... لأن الجيم والقاف ، والصاد والجيم ، والنون بعدها راء ، والزاى بعدها دال ، والباء والسين والتاء ، والسين والزاى ، والطـــاء والجيم والصاد والطاء لايجتمع شىء من هذه الحروف الا ودل على ان [illegible]

ويعلق الدكتور محمد مصطفى رضوان على هذا بقوله : « لكن يبدو ان ترجيح اسبقية المواد المركبة من حروف شديدة على المركبة من حروف رخوة او متوسطة لا يستند الى دليل تاريخى .

ولعل الدافع لهذا الترجيح ان سنة التطور تقضى بالانتقال من الصعب الى السهل كما ان العقيدة الغالبة لدى العلماء ان الأصوات القوية هى التى لفتت نظر الانسان فى اول الأمر ، فحاكاها بحروف شديدة مثلها ، ثم حاكى الأصوات الخفيفة التى هى اقل من الأولى شأنا بحروف رخـــــوة أو متوسطة » (٢) .

وهو باستدراكه على ما بدأ به قد كفانا مؤونة الرد ، والتعقيب . وبخاصة واللغة — كما اسلفنا — لم تنشأ منطقية ولا عقلية ، وتوحى سنة التطور والرقى بهذا التدرج .

---

(١) شفاء الغليل ص ٦ ، ٧

(٢) مجلة كلية الآداب .

وقفة مع الحرف الثالث :

● ووقف العلماء المؤيدون للثنائية طويلا عند طبيعة الحرف الذى يثلث المادة الثنائية .

وخلاصة رأيهم فيه : أن المعنى العام للمادة الثنائية كامن وباق فيها مهما توسعنا فى المادة بالزيادة ، وكلما رددنا موادها المزيد الى الصورة الثنائية ، وجدنا الحرف الذى ثلث أصلها ما يبرح ذا قيمة تعبيرية ذاتية ، توجه المعنى الأصلى العام توجيها خاصا ، وتزيده تنوعا وتقييدا فقط .

وبعض علمائنا القدامى حذق الثنائية على هـذا النمط ، كالراغب الأصفهانى (٥٠٢هـ) كما فى مؤلفه : « المفردات فى غريب القرآن » اذ اعتبر المضاعف هجاء واحدا ، ولم يبال تكرار حرفه الأخير ، لأنه عنـده من وضع الخيال ، لا من وضع العلم والتحقيق .

ورد ابن فارس ، فى « مجمل اللغة » باب (الجيم والذال وما يثلثهما) الى معنى الأصل ، كما فى جذر ، وجذع ، وجذل ، وجذم .. وان تفـاوت الاستعمال نتيجة للحرف الثالث : فالأصل العام للشجرة جذل ، وللنخلة جذع ، وللحساب جذر ...

- وفارس الحلبة فى شرح هذا المبدأ هو العلامة أحمد فارس الشدياق (١٨٨٧ م) ، والمسـتشرق الألمـانى (جـزينس) ، وأجـاد الدكتور محمد مصطفى رضوان فى عرض آرائهم عرضا يوضح أهم مبـدأ من مبادىء وأسس الثنائية فى نظره .

ولابد لنا فى هذا المقام من تلخيص هذا المبدأ ، كما ورد فى (مجلة الآداب الليبية فى عددها الرابع عام ١٣٩٢هـ) زيادة فى الفائدة ، ولتتضح جوانب الحقيقة فى هذه المشكلة التى طال أمدها ، واظهارا لبراعة الحس اللغوى للشدياق ، وكشفا لعديد من مؤلفات لغوية حديثة غمرت الأسـواق ، تسوق فكر الشدياق وغيره ، وبضاعتهم دون أن تذكرهم أو تعزو اليهم علمهـم وفضلهم وسبقهم :

فقد رأى العلامة (جزينس) أن تنمية المادة الثنائية ، يتم بواحدة من خمس طرق أولها : تضعيف الحرف الثانى ، وتلك وسيلة أولى وطبيعية فى

التنمية ، كما قال كثير من العرب والمستشرقين ووافقهم الشدياق ، وذكر ستة أسباب (١) للتدليل على صحة ما ذهب اليه ، نوجزها فيما يلي :

١ — أن معظم اللغة مأخوذ من حكاية صوت أو صفته ، وحكاية الصوت انما تأتي من المضاعف مثل : دب ، دق ، قر .

٢ — أن الفعل في الأصل كالاسم : في كونه يوقف عليه بالسكون قبل اتصاله بفاعله ، فاذا اتصل بفاعله فتح : فحين وضع الواضع (دق) لم يقصد بها في أول الأمر ان تكون فعلا ولا اسما ، بل مجرد حكاية لصوت توهمه ، بقطع النظر اى شيء آخر ، فلما وصل (دق) بفاعله قال : دق الرجل . فلما اراد تخصيصه بأن يكون اسما قال : دق الرجل . وكثيرا ما ترى صيغة الاسم والفعل واحدة لهذا .

٣ — أن اللغة — كغيرها من الصنائع والموضوعات البشرية — لايحدث شيء منها تاما كاملا من اول وهلة ، ولكن على التدرج . فالاحرى ان نقول : ان الفعل السالم جاء آخر الأفعال اما الأجوف فانه غالبا ما يأتي عقب المضاعف ، مثل (طب) وطاب ، وصر وصار (اى صوت) . وأما الناقص فانه صدى غيره من الأفعال ، وكأنه نوع من القطعة (الترخيم) لغة لبعض العرب . نحو : عمروهمى ، والأسف والاسى (٢) .

٤ — أن حكم ترتيب المزيد المضاعف لا يكاد يتخلف : فقلما ترى للمضاعف معنى الا ورأيت في مزيده مثله أو ما يقاربه . والمراد بالمزيد هنا مايكون الحرف الثالث فيه او لامه غير عينه . وذكر لذلك امثلة كثيرة تبلغ سبعة وخمسين ، منها : سل وسلب ، وكد وكدح ، ومن ومنح ..

٥ — أن زيادة حرف على المضاعف اليق بحكمة الواضع في التفنن من نقصه ، اذ لو جعلت السالم اصلا لزم عنه العدول من الكمال الى النقصان ، والاختصار في الأفعال ليس من مذهب العرب كما تدل على ذلك الأفعال المزيدة .

ودليل آخر : هو انهم يشبعون الفتحة في آخر الفعل فيتولد منها الف ، كما في : (دحب ودحبى ، وسلق وسلقى) .

---

(١) سر الليال في القلب والابدال ص ٢٢ — ٢٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٦ ، وراجع ايضا معجميات عربية سامية ص ٩٦ — ٩٨ .

وقس على ذلك زيادة الهاء في مجزع للجبان ، والنون ، في ضيفن ، والراء في بحتر وبعثر .

٦ ـــ اننا نجد افعالا مجهولة الأصل واصلها من المضاعف معلوم ، مثل : امتخر العظم ، اى استخرج مخه فهو لابد ان يكون من امتخ اذ لم يجيء المخر بمعنى المخ . وقس على ذلك تمخى العظم ، بمعنى تمخخه » .

ونخرج من ذلك بأن كل المضاعفات هي بالحقيقة ثنائيات ، والثنائى وارد حتى في الساميات ، متصفا بمعنى حقيقى وتام كما سبق ان ذكرنا للأب مرمرجى .

ثانيها : اضافة حرف علة الى أول المادة او وسطها أو آخرها : ويعلل الشدياق الاضافة في الأجوف بقوله :

ان الأجوف غالبا من يأتى عقب المضاعف ، كطب وطاب ، وضر وضار وجب وجاب ... وهو كثير في العربية .

ويظهر ان السبب في المحول عن المضاعف ، الى الأجوف ، هو الرغبة في التخلص من تشديد عين الفعل بمد حركة فائه ، لان التشديد ثقيل ، حتى لا يكاد يوجد في اللغات الآرية .

وسبق ان علل الاضافة في الناقص بأنه : صدى غيره من الأفعال ، وكأنه نوع من القطعة (الترخيم) لغة لبعض العرب ، كما في شجب وشجا ومحق ومحا .

والتقارب شديد بين معنى المضاعف والناقص ، كما في : قضى ، وغمى الخبر وغم .

والتقارب أيضا شديد بين المضاعف والمثال ، كما في : وقص (قطع) وقص . ووخز وخز .

ثالثها : اضافة حرف من حروف الزلاقة (١) ، الى المادة الثنائية : مثل: قص قصم ، قصر ، قصب ، قصف قصل ..

---

(١) حروف الزلاقة (اى الخفة) يجمعها قولك : (مر بنفل) .

رابعها : اضافة أحد حروف الحلق (١) الى المادة الثنائية ، مثل : فق (فرق وفتح) وفقأ وفقع ، وفتح . ورد وردع . وقط وقطع . ومن ومنح .. فالمضاعف والحلقي معناهما واحد .

خامسها : اضافة حرف من أحرف الصفير (٢) الى المادة الثنائية ، مثل فر ، وفرز ، وفرس ، وترص ، وكلها بمعنى فصل وفرق وقطع . ومثلها : فل وفلذ ...

تلك هي الطرق الخمسة التي تثلث المادة الثنائية ، كما لاحظها علماء اللغة ، وكلها شاهدة بأنه لافرق بين المعنى العام للمادة الثنائية ، وبين المعنى بعد أن أضيف اليها ما يثلثها .

ويعرض علينا الدكتور رضوان — في نهاية عرضه لآراء العلماء — مادة ثنائية حكائية ، مبينا المواد الثلاثية المشتقة منها بالطرق المختلفة ، وهي مادة (قع) ، مما يؤيد أن أصل الثنائية في لغتنا مكين وثابت ، يقول :

ويظهر أن مادة (قع) في الأصل حكاية لصوت الرعد المزعج ، ومنها القعقعة ، وتقعقع أي اضطرب .

والمواد المتفرعة عن هذه المادة تفيــد معنى الخوف أو الانكماش أو الاسترخاء بصورة ما ، لما يترتب على سماع هذا الصوت من خوف .

فمن ذلك (قبع) القنفذ : ادخل رأسه في جلده ، باضافة حرف زلاقي في الوسط ومثله (قنع قنوعا) اي تذلل .

وبابدال القاف كافا ينشأ : (كع) الرجل كعوعا ، اى جبن وضعف .

وباضافة الواو في الأول ينشأ (وكع) البعير ، اى سقط ضعفا .

وباضافة حرف علة ، في الوسط ينشأ (كاع) ، اذا هاب وجبن .

وباضافة حرف علة في الآخر ينشأ (كعا) ، اى جبن . والاكعاء ، الجبناء .

---

(١) حروف الحلق يجمعها قول الناظم : همز فهاء ثم عين حاء مهملتان ثم غين خاء .

(٢) أحرف الصفير : هي ، السين والزاى ، والصاد ، ويلحق بهـــا ما يقاربها .

ويقال : كبع ، أى ذل ، و (كنع) انقبض . و (كنع) هرب ، وكنعت الابل : استرخت بطونها .

وبابدال الكاف خاء تنشأ المواد : (خنع) الصبى ، أى قحم وانهكه البكاء ...

(وخنع) السراب : اضمحل . و (خرع) الرجل : ضعف . ومثله : خشع خضع خنع . ولخع الرجل اى استرخى جسمه .

وأن نظرة على الطرق التى مرت عليها المادة السالفة ، والمعنى العام الذى يرتبط بالثنائية بقوة ، يدعونا أن نقرر : أن عددا كبيرا من الاصول الثلاثية جاء تنمية لأصول ثنائية ، لاشك فى ذلك .

* * *

وجهات نظر في مسلك الثنائية

وقد بدت وجهـات نظر حول بعض طرق « الثنائية » من المحدثين المؤيدين لها ، فأحدثت اعتراضات وجدلا :

● فأكثر الألفاظ الثنائية يرجع — عند الشيخ العلايلي — الى المعلات ، اذ يرى المعلات من بقايا العصور السحيقة ، ولذا لم تخضع للوضع النظامي» فكانت وليدة فوضى الوضع القديم ، قبل الوضع الثابت ، وهي بذلك بداية في دور النضج اللغوي كما جاء في (مقدمته) .

ولذا فالشيخ يدعونا الى اتخاذ هذه المعلات المحفوظة في المعـاجم المختلفة عدة لفهم الثلاثي على وجهه الصحيح ، لانه الأصل التاريخي الذي انفصل عنه ، يقول : « من الممكن جدا تعيين دلالات هذه الحروف — حروفه الجدول الهجائي الذي سبق ذكره — بأصواتها حين كانت لغة ، على شيء من الافتراض المقلوب وسبيل هذا التعيين المعلات مطلقا ، وبالأخص منها اللفيف في العربية ، سواء أكان لفيفا مقرونا أو مفروقا .

وليس اعتمادها بأخذ معانيها المعجمية على وجه التحديد ، وانمـــا بأن ننتقل منها بالمقارنة الى ماهو الادخل في تفكير السانجين واعتباراتهم »(١)

واذا لاحظنا العلاقة البينة بين المعتل والمضاعف ، والمضعف الرباعي والمهموز ، في مثل :

(عبى ، عب ، عبعب ، عبأ) تأكد لنا ايضا صحة ما يراه الشيخ .

والدكتور عبد الصبور شاهين يرى أن « اعتبار المعتل ثنائيا اتجاه سليم من الناحية الصوتية » (٢) .

وحين قال الشيخ العلايلي باتخاذ المعلات المختلفة عدة لفهم الثلاثي على وجهه الصحيح ادخل في اعتباره الثلاثي الصحيح أيضا فاضطره ذلك الى التكلف .

---

(١) المقدمة للشيخ العلايلي ص ١٣٠

(٢) في التطور اللغوي ص ١٠٣

فحين تتأمل وجهته فى مادة (عبل) ، تجده جعلها متفرغة من (علا) المعتلة ، واصلها (عل) اما الباء فهى عين الكلمة مكنوفة بالفاء واللام ، كانهما سياج لها فسلمت من الحذف ، مع أنها الحرف المحشو المزيد ، وبذل الحرف المعتل للعوارض حتى حذف : فكان حرف الباء الصحيح المحشو تعويضا عن حرف العلة الساقط المحذوف . ولو اسقطنا حرف الباء المزيد قياسا على سقوط الحرف المعتل لظهرت لنا الكلمة الثلاثية على صورتها الثنائية الحقيقية ، فاذا هى (عل) فقط .

فاى جامع يجمعها بعد هذا بهاتين المادتين الى الطريق الطبيعى ، لو ارجعنا (عبث) بحذف الباء وهو الحرف الوسط الى (عث) التى هى الثنائي المضعف والتى يكون معلتها (عثا) . . وعلى رسلها تعود (عبد) الى (عد) والتى يكون معلتها (عدا) .

ويعلق الدكتور ابراهيم نجا على طريقة الشيخ العلايلى هذه بقوله انها : « مبنية على التكلف لأن تطبيقها لا يتم الا بتجريد الحرف الوسط ، الذى هو الباء فى المثالين السابقين ثم تناول المادة وفيها المعلات التى وقع فيها الحرفان على ترتيبهما . مع ان تجريد مادة من حروف الوسط انما يكون بمنزلة الحذف والاسقاط لذلك الحرف المحشو ، فكيف يسلخ من بنية المادة جزء لا يتجزأ منها ، ثم تظل هذه المادة معبرة دونه عن غرضها تعبيرا كاملا » (١) .

اضف الى ذلك انه سيترتب على قول الشيخ العلايلى هذا : « عكس ما ذهب اليه النحاة والصرفيون القدماء : من ان هذه الافعال المعتلة ترجع فى الاصل الى بنية ثلاثية ، سواء اكانت معتلة العين او اللام فكلمة (قام) من (قوم) ، وكلمة (باع) من (بيع) ، وكلمة (دعا) من (دعو) وكلمة (سعى) من (سعى) ، كما ان الفعل (وعد) ثلاثى لفظا وتقديرا ! » .

كما اننا نلاحظ « ما فى رأى الشيخ — العلايلى — من نظرة وصفية يختلف بها عن منطق النحاة التعليمى المعيار ، فقد ارادوا طرد اوزان الافعال على وتيرة واحدة : توزن بميزان واحد هو (فعل) فحملوا المعتل على الصحيح ،

---

(١) فقه اللغة العربية — د . ابراهيم نجا — ص ٨٦

وبنوا مذهبهم على اساس (الخط العربى) الذى يشير الى الصوت الطويل برمز اصلى مستقل : دون الصوت القصير . كما يخلط بين صوتى الواو اللينة والمدية ، فيشير اليهما برمز واحد ، فى مثل (وعد ، ويقوم) ، وكذلك الياء فى مثل (يسر ، وقيل) ، فكل رمز فى الخط العربى يمثل عنصرا ذا اعتبار فى الأصالة او الزيادة » (١) .

ولكن يعذر الشيخ العلايلى — عندى — فى افتراض التصور ، لأن المرحلة قديمة ، وعز الدليل وندر الشاهد ، ولذا فلا مانع من ان نتجاوز عن الوهم القليل اذا أدى الى تصور مقبول يقوده خيال خصيب ، من عالم أريب ، وعقل واع حصيف .

ومن يطالع المقدمة للشيخ ، ويرى بصره بالعربية ، وثقافته المتنوعة ، يصدقه فيما يتصوره ويقتنع بما يقرره .

ومحاولته الفذة لوضع (معجم لغوى) بديع فائق ، تدل على أهليته لما يرى وتمكنه واقدامه ، وتشهد بصحة ما ذهبنا اليه فى براعته ، وتكفينا أدلته الاحتمالية لذلك .

* * *

● وللاستاذ جورجى زيدن ، وجهة نظر أخرى فى ارجاع الثلاثى الى ثنائى ، أثارت ايضا اعتراضا عند بعضهم :

ذلك انه اعتبر الثنائى ، هو الأصل لجميع الكلمات ، كرأى القائلين بذلك ، الا انه انفرد بارجاع الثلاثى الى اصلين ثنائيين ، واخذ منهما على طريق النحت ، مثلا : (قطف) وهو مفيد للقطع وللجمع ترجع الى اصلين هما : (قط) المفيدة للقطع و (لف) وهو مفيد للقطع وللجمع ترجع الى المفيدة للجمع . فولدنا منهما بطريق النحت (قطف) المفيدة للمعنيين ، على طريق النحت باغفال اللام فى (لف) ونقل حركتها الى ما قبلها ، فصارت قطف .

وكذلك : (قمش) بمعنى جمع ما على الأرض من فتات ، ترجع لأصلين هما : (قم) بمعنى كنس ، و (قش) بمعنى جمع ، وتولد من (قم قش) قمش ، بطريق النحت ، بالغاء القاف الوسطى بطريق التخفيف (٢) . وتلك محاولة ووجهة نظر لا بأس بها .

---

(١) فى التطور اللغوى — ص ١٠٣
(٢) الفلسفة اللغوية ، لجورجى زيدان ص ٦٢ .

والنحت قديم ، عرفته العرب : فنحتوا الرباعي مثل : عبشم ، وبسمل ، ودمعز : من عبد شمس ، وبسم الله الرحمن الرحيم ، وادام الله عزك .

كما نحتوا من الثلاثي (ضبط وضبر) ضبطر ، بمعنى الرجل الشديد ، وصلدم من (صلد ، وصدم) ... ففكرة النحت نجدها قديمة قدم لغتنا ، فهو مسبوق بها ، ولا شك .

وقرر ابن فارس في معجم (المقاييس) : أن الرباعي والخماسي منحوتان دائما ، مثل : (بحثرى) بمعنى بدد ، مأخوذ من أصلين : (بحث) عن الشيء ، و (البثر) وهو ما يظهر على البدن .

ولكن جورجي زيدان جعل النحت في الثلاثي والثنائي أيضا ، وذلك فضلا عن انه مجاف لوجهة نظر الاقدمين ، فانه ايضا لا يطرد في مواد كثيرة ، فحكمه غير مبنى على استقراء واسع ، كما ذكر الدكتور ابراهيم نجا ، حين نقده بقوله :

« وما ذكره جورجي زيدان في ارجاع الكلمة الى اصلين ثنائيين : ان كان لكل منهما معنى في نفسه ، واذا لم يتحقق ذلك .. فلا يخلو الأمر من ان يكون لاحد الاصلين معنى في نفسه اولا : فان كان الاصل الذي له المعنى في نفسه هو الامر فعلا ، وكان الحرف المضاف الى ذلك الاصل زيد اعتباطا — وغالبا ما يكون احد هذه الاحرف (ل ، م ، ن ، ر) — واضيف للمبالغة ، او تنويع الفعل بما يطابق قصده ، نحو : فض ، رفض ، وهب ، لهب . واذا لم يكن لأحد الاصلين معنى في نفسه بألا يكون اسما ولا فعلا ، فلا يخلو من ان يكون حرفا في غالب الامر ، وقد يكون اسما مفتقرا الى غيره ، أو كان فعلا في الأصل ولم يعد مميزا الآن .

وتطبيقا على ذلك ، قالوا : ان كلمة (مال) بمعنى مقتضيات مركبة من (ما) الموصولة ولام الجر ، وحذف المجرور ، واصله : (مالى) اى الذى لى ، أو (مالك) اى الذى لك . وكذلك كلمة (ويل) اصلها (وى) ، و (لى) . وبهذا الأسلوب رأى فريق من اللغويين : أن (ليس) مركبة من (لا) النافية ، و (أيس) الدالة على الكون المطلق في بعض اللغات السامية .(١)

---

(١) فقه اللغة العربية ، دكتور نجا ، ص ٨٧ ، ٨٨ .

وما رآه جورجي زيدان في هذا الصدد ، هو جزء من القضايا الخمس التي صدر بها كتابه . نذكرها لعلاقتها الوثيقة بما نحن بصدده وهي :

١ — أن الألفاظ المتقاربة لفظا ومعنى هي تنوعات لفظ واحد .

٢ — وأن الالفاظ المانعة الدالة على معنى في غيرها (يقصد الادوات) انما هي بقايا ألفاظ ذات معنى في نفسها .

٣ — وأن الالفاظ المانعة الدالة على معنى في نفسها يرد معظمها بالاستقراء الى أصول ثنائية تحاكي اصواتا طبيعية .

٤ — وأن جميع الألفاظ المطلقة ترد قابلة للرد (بالاستقراء) الى لفظ واحد أو بضعة ألفاظ .

٥ — وأن ما يستعمل للدلالة المعنوية من ألفاظ ، وضع أصلا للدلالة الحسية ، ثم حمل على المجاز لتشابه في الصور الذهنية » .

وهو يرمي من ذلك الى اثبات : « ان لغتنا مؤلفة أصلا من اصول محصورة عدا أحادية المقطع ، معظمها مأخوذ عن محاكاة الاصوات الخارجية ، وبعضها عن الأصوات الطبيعية ، التي ينطق بها الانسان غريزيا » (١) . وهو استنتاج مقبول .

واذا أسرف جورجي زيدان في القول بالنحت اي نحت الثلاثي من ثنائيين على رأي البعض فهو خير — في نظري — من الذين يردون النحت في لغتنا ، أو يقللون منه الى النزر اليسير والندرة :

فالأب مرمرجي لا يوافق على اتصاف الحروف المنفصلة بمعان خاصة طبيعية ، ولا بالاحادية ولا بالنحتية في العربية ، اي نحت الثلاثي من ثنائيين ، تبعا لزعم بعض الاقدمين بأن الرباعي منحوت من ثلاثيين (٢) .

والأستاذ انيس فريحة ، يرى أن « النحت قليل جدا في لغتنا ، مثل (ماهية ، ومال) يقول : والوهم ان تظن أن (حوقل) وأشباهها منحوتة ، وانما هي مختصرات العبارات وجمل ليست كتابا بالمعنى اللغوي . ويعترف

---

(١) الفلسفة اللغوية ص ٣٣ .

(٢) معجميات عربية سامية ص ١٠٣

بالنحت في لغات أخرى ، ويمثل بكلمة (بيولوجيا)المأخوذة من (Bios) بمعنى الحياة ، و Logos. بمعنى الكلمة أو العلم .

وكلمة (تلسكوب) المأخـوذة من كلمتي Tele بمعنى البعـد والمسافة و Scope أي مدى الرؤية .

ويضيف بأن الجذور العربية تأبى النحت ، لأنك اذا حذفت حرفـا من الحروف الاصـلية أفسـدت المعنى .

واذا وثق بعضهم لنحت (برمائي) للحيـوان الذي يعيش في المـاء واليابسـة و (مدرحية) لتفسير التاريخ على اسس مادية وروحية . فليس معنى هذا اننا نستطيع أن نستفيد من هذه الخاصية اللغوية » (١) . هذا ارتآه الأستاذ انيس فريحة .

وليس بالرأي ، كما سيجيء .

ووجهة نظر الأب مرمرجي الدومنكي (٢) في رد النحت اننا اذا قلنا : « أن طائفة من الثلاثيات ممكن صدورها عن ثنائيين أو ثلاثة ، حسب اختلاف مداليلها ، فلا نعني بذلك انها مركبة من ثنائيين منحوتين ، بل انها نتيجـة لزيادتين أو ثلاث : الواحدة جرت بالتتويج ، والثـانية بالاقحام ، والأخيرة بالتذييل ، مثلا :

الثنائي (نه) ذيل بالراء ، فنجم عنه (نهر) : بمعنى الزجـر .

والثنائي (هر) توج بالنون ، فصدر عنه (نهـر) بمدلول جرى .

والثنائي (نـر) اقحم فيه الهاء ، فجاء منه (نهر) بنحـوى أنار واضاء .

وكذا القول في الأضداد ، مثلا (طلع) يدل على الظهور والغياب ، فهو على رأينا — ليس بمنحوت من (طل) و (طع) ، بل ان الثنائي (طل) ذيل بالعين ، فصدر عنـه (طلع) بمعنى ظهر .

والثنائي (طع) أقحم فيه اللام ، فنجم عنه (طلع) بمدلول اطمأن ونزل والغياب ضرب من النزول والاطمئنان .

---

(١) نظريات في اللغة ص ٧١ ، ٧٢

(٢) راجع المعجمية العربية في ضوء الثنائية والالسنية السامية لمرمرجي ص ١٣٥ — ١٤١

فهو لا يرى النحت في امثــال هذه ، ولكن جاء الاكتناز تابعــا لاختلاف المداليل ، كما رأينا بزيادة الحروف .

ورأيي أن هذا القول على طلاوته ، يحرم العربية من منفذ من منافذ تنميتها الذاتية ، اذ ان النحت أو الاشتقاق الكبار — كما سماه بعضهم — صنو الاشتقاق بألوانه ، وهو باب عظيم في تنمية اللغة ، و « ديناميكيتها » في الزيادة والتوليد والنماء .

والقول بندرة النحت ، او الغائه كلية من لغتنا قول فج ، لا يستند الى اساس علمي مدروس ، بل أعتبره — انا بعد بحث ودراسة — من خواص لغتنا وميزة لها في الثروة اللغوية كطريق من طرق الاشتقاق ، كما سماه بعضهم بالاشتقاق (الكبار) . ولا تقتصر امثلته على الستين او السبعين لفظة — وهي مع ذلك ليست بالقليلة — التي وعتها بعض كتب الأدب واللغة ، بل هو اكثر من ذلك واوسع ، لو عالجنا بابه معالجة فهم واستثمار . وقد وضع فيه الأستاذ (اسماعيل مظهر) رسالة قيمة ، حاول فيها جعل أسسه وطرقه معبدة وسلسة كأنها قواعد وجداول رياضية .

وليس هذا مجال الافاضة او الشرح في هذا الجانب ، وانما سنفرده ببحث باذن الله .

ونقول : بأن محاولة الأستاذ جورجي زيدان ورأيه في النحت ، اضاف على الأقل — سندا جديدا ، ورصــيدا يضــاف الى أدلة وأســانيد « الثنائية » .

وحسبه ما ذكر من امثلة واجتهاد توضح جانبا من جوانب الدرس والأصل اللغوي عند وضعه الأول ، أو عند اشتقاقه بعد ذلك .

* * *

● اما مزاول الثنائية والالسنية السامية : الأب مرمرجي الدومنكي ، فيسلك في تثبيت دعائم الثنائية مسلك الاستشهاد والمقارنة بين أخــوات العربية من السامية الأم ، لمعرفته للغات عديدة (١) .

---

(١) يرى الأب مرمرجي — والحق فيمــا آره — ان المشتغل باللغات =

فيطوف بالقارىء فى معانى المادة بين المعاجم العربية ، ويظهر اشتقاقها ومعانيها الحسية والمعنوية .. ثم يقارنها بمعانيها فى أخواتها السامية ..

ثم ينسق ويعلل على كل ما سبق وذكره ، مبينا الرس الثنائى الذى تضمن الفكرة الاولية من المعانى التى وردت للمادة .

ثم يشير الى كيفية اشتقاق المعانى وقربها او بعدها ، والحقيقى والمجازى منها .

ثم يأتى بأمثلة لما ثلث المادة التى معه ، ويبين عليها كل المراحل التى سبق ذكرها ، منسقا ومعللا ، ويخلص من كل ذلك الى ان الجذر الثنائى واحد ، تدور حوله المعانى ، ومنه اخذت ، وعليه جاء الحرف الزائد .

فهو على سبيل المثال يذكر مادة (بر) بتشديد الراء ، ويرينا المعانى التى تؤخذ منها فى الإستعمالات والاشتقاقات ، كما جاء فى العربية وأخواتها من السامية :

فمادة « بر » فى العربية بمعنى : الصدق ، والرحمة ، والطاعة ، والرواج ، والقبول ، والقهر ، والصلح ، والصلة ، والتزكية ، والضوء ، والرفعة ، والكثرة ، والغلبة ، وركوب البر ، والملاطفة ، والطاعة ، والتحرج ، والانفراد ، واسم من أسماء الله الحسنى ، واليابسة ، ومقابل البحر ... ...

وفى « السريانية » بر (Bar) ومن معانيها : بر ، صدق ، سذج ، بله ، غبى ..

وفى « العبرية » (Barar) ومن معانيها : نظف ، تسم ، اختار ، صقل ، فحص .

وفى « الحبشية » (Barara) ومن معانيها : طهر ، صدق ، نفذ ، نزع ، سرق ...

= والمقارنات لابد وان يكون متضلعا فى لغتين أو أكثر ، مع معرفة فقهها وقواعدها ولهجاتها ، فضلا عن معرفة بعض الالسنة غير السامية التى لها علاقة بالعربية ، او بغيرها من الاخوات السامية . وذكر ان مستشرقا : (من علماء السامية) المانيا هو ( ) (١٦٢٤ — ١٧٠٤) كان اختصاصيا بارعا ، وكان يعرف خمسا وعشرين لغة .

وفى « الاكدية »(Bararu) ومن معانيها : اضاء ، لمع ، تلألأ ، فحص ، استفهم ...

وفى « الأمهرية » ، و « القطرية » جاء الثنائى (بـر) بمفهوم (قطع ، وقد) كمـا فى المعجم الدثيني تأليف (Landberg) .

ثم يشير التنسيق والتعليل فيرى :

ان الفكرة الاولية الحسية المتضمنة فى الثنائى (بر) كما فى مجانسه (فر) هى فكرة : الشق ، والقطع ، والفصل ، والابتعاد ، وهى كامنة أو ظاهرة فى بقية المعانى على اختلافها فى العربية وأخواتها : فمن القطع نظافة وصقل ، واختيار وفحص ، والفارغ منفصل عن غيره مما كان يملؤه ، والتافه فارغ من المحتوى الطيب ، والبلاهة حرمان من العقل . ومن النقاء المادى ينتقل الى النقاء الادبى والروحى فى الفضائل ... وفى مزيد المادة واشتقاقاتها ، يرجع المعانى الاخرى الى الفكرة الاولى : فالبر (القمح) سمى بذلك لانفصاله عن تبنه .. والقمر يلمع على الدنيا نتيجة الصقل ، والصقل مكمل لعمل التنظيف والتنقية ...

وبمناسبة ذكر (فر) مقابل (بر) ذكر الأب مرمرجى : ان كلمة (فوريم) فى الاكدية (الاشورية والبابلية) بمعنى السهم ، او القطعة من الارض ، ويجوز أن يكون مشتقا من الرس الثنائى السامى ، وهو (فر ، أو بر) (١) .

وعلى نسق ما جاء فى (بر) والفكرة الاولية التى تضمنتها ، تأتى معانى المواد المكتنزة فى : (برا) فى العربية ، و (Bra) فى السريانية ، و (Bara) فى العبرية ، و (Baru) فى الاكدية ، و (هبرا) فى الفينيقية ، ، و (برا) فى السبئية .

ومثل (برا) المواد : (برح) و (برد) (٢) .

وبعد دراسة ومقارنة الاحصاءات والمراجع المتنوعة ، وفى شبه قياس منطقى يرى الأب مرمرجى : وفرة الاصول والرسيس العربية ، وتفوقها عددا على أصول ورسيس بقية الألسن السامية ، بل ولعلها أوفر ثروة من

---

(١) معجميات : عربية سامية ص ١٤ ــ ٣٤ بتصرف .

(٢) المصدر السابق ص ١٤٤

لغات العالم أجمع . وهذا قول يحتاج الى مؤازرة واستعانة ودراسة بالحاسب الالكتروني ، لتبيان الحقيقة .

كما يرى أن الأصول الموسومة بالثلاثية والرباعية المجردة ، هي بالحقيقية توسعات اشتقاقية لرساس الثنائية ، التي بها بدأت نشأة اللغة ، وعنها صدرت جميع المشتقات على تضارب انواعها :

فالرباعي — مع ما يدعيه الصرفيون من مجردتيها الرباعية — ترجع بسهولة الى ثلاثيات ، فهي — اذن — ثلاثية مزيدة (١) .

اضف الى ذلك ان الثلاثيات المجردة الشاملة : (المثال ، والأجوف ، والناقص ، والمهموز ، والمضاعف ومكرره) هي بأجمعها قابلة لأرد ايضا الى « الرس الثنائي » فيجدر — من ثم — طرحها من مجموع الأصول الثلاثية ، فيبقى السالم وحده ، وهو كذلك هين رد اغلبيته الى الثنائي ، مع استمرار المناسبة المعنوية بينهما ، كما هي باقية بين الثلاثي والرباعي ، وبين الثلاثي ومزيداته .

اما البقية الباقية التي تعذر ردها من الثلاثي الى الثنائي ، فذلك يمكن عزوه الى ضياع الرساس الثنائية ، أو فقدان محاويها الأولية ، مثلما ضاعت ، أو لم ترد الاصول الثلاثية لبعض المزايدات ، أو المشتقات التي بلغ عددها الثمانمئة أو اكثر ، كما جاء في الاحصائيات . فالرد الى « الرس الثنائي » هو الأصل عند الأب مرمرجي ، واذا لم يتمكن من ذلك يعزوه الى الفقد والضياع ، كما ضاعت تصاريف بعض الأفعال في مثل (يدع ، يذر ، عسى ، ليس) ، أو أن الخفاء جاء من خفاء المعنى الاصلي لسبب من اسباب الضياع والفقد .

ويرى طريق توسع الثنائيات — كما أسلفنا — بتكرار الحرف الثاني ، أو بالتكرار والمد معا ، أو بزيادة التاء في الآخر ، أو بالثلاثة مجتمعة .. وكل التوسعات المختلفة متضمنة منطوق « الرس الثنائي » المشتقة منه ، وقد احصى منها ثلاثمائة وسبعة وعشرين رسا (٢) .

---

(١) راجع : هل العربية منطقية لمرمرجي ص ١٤٥ — ١٥٠

(٢) معجميات عربية سامية ص ٧٢ — ٨٠ بتصرف .

وعلى هذا النمط الذكي الواعي في الضبط والتخريج ، يرد الأب مرمرجي المواد الكثيرة التي تناولها بالشرح والتأصيل ، الى رسها « الثنائي » ويشير الى معانيها التي تنوع اكتنازها ، وينبه على اصلها الذي تنتسب اليه في فروع السامية ، وأماكن تعاورها في الاستعمال مما يدل على ذكاء والمعية ، مكنه منهما ثقافته الواسعة والواعية .

وفي عجالة نسرد بعض امثلة لمواد أشار الى رسها الثنائي (١) :

مادة (بلد والبلدة) بمعنى اقام ، من بلد ، أو لبد (بالقلب) مشتق من الثنائي « لب » . ومادة « لحن » من الثنائي (حن) .

ومادة (ملك والملاك) اصله (مل) بمعنى تكلم ، من باب الاطلاق ، وتوسع المعنى فوصل الكلام من باب التقيد .

اما مادة (ملك والملاك) بتخفيف (ملأك) من لأك أو ألك ، ومنه الوكة وملاكة بمعنى رسول ورسالة فأصله الثنائي (أل) . بمعنى : أسرع .

ومادة (ادب) من دأب على سبيل القلب ، واصله الثنائي (دب)

ومادة (الشعر) من الرس الثنائي (شع) اذا برز ، وانتشر ، وتفرق ، واضاء .

ومادة (وثب) بمعنى قفز وقعد — على الضد — من (ثب) . ومادة (ساعور) بمعنى النار ، من (سع) دعاء للمعزى وتحريض لها للاقبال ، وتوسع فيه في تسعير النار .

و (الأب) أصل سامي ، من الثنائي (أب) مأخوذة من ميل الطبيعة للانبات والايلاد . ومبدله (أم) — بين الباء والميم — وكلاهما يدل على الاندفاع الى الافراغ في المواليد . و (حواريون) من (حر او حار) اذا تحرك وسار .

و (الكاهن والكهنوت) من (كه) وكهكه اذا تنفس . و (هيمن) عبرية من (من) والمنة ، أي القوة . و (الفاروق) سامية ، للذي يفصل بين الأمور ، وأيضا الشديد الفزع ، من (فق) الدال على الانفراج والانفتاح .

---

(١) راجع معجميات عربية سامية .

هذه أمثلة سقناها ، لمزاول الثنائية ، تدل على سعة افقه فيما ينادى به ، وتمكنه فيما ارتآه . ومن شاء مزيدا ، فليراجع — ان شاء — تآليفه العديدة فى هذا الجانب .

* * *

● ومع أن علماءنا العرب القدامى ، ومعاجمنا العربية لم تنص صراحة على القول بالأصول الثنائية كنظرية ، الا أن صنيعها فى التطبيق يشير الى ذلك ضمنا ، اذ تبين من تتبع كلامهم — كما أسلفنا — ومن النظر فى معاجمنا الاصيلة — وجود علاقة بين محوى المعنى العام للاصول الثنائية ، وبين الثلاثى المتفرع عن هذه الأصول ، مما يدل على أن « الثنائية » ترددت فى اذهانهم كنظرية ، ولمسناها فى اقوالهم ومعاجمهم كتطبيق ..

وقد جمع الدكتور أمين فاخر بتتبع وجهد فائق أمثلة كثيرة لذلك فى كتابه : (ثنائية الالفاظ فى المعاجم العربية ، وعلاقتها بالاصول الثنائية) فى دراسة معجمية احصائية ، تؤكد ما ذهبنا اليه .

وهذه أمثلة قليلة تمثل غيضا من فيض ، مما جاء فى كتبهم وقواميسهم :

فمادة (عم) اصل ثنائى يدل على العلو والارتفاع . وفى « العين » للخليل بن احمد : العميم : الطويل من النبات ، وبه قال ابن فارس (١) والجوهرى (٢) .

وفى الأصول الثلاثية لهذه المادة نجد المعنى :

ففى (عمد) بالدال رجل عمدان وعمدانى اى طويل قال ابو عبيدة : عمدت الشىء اقمته فهو معمود ، وقال تعالى : « **ارم ذات العماد** » (٣) اى الطول ، وجاء عند الجوهرى (٤) وابن فارس (٥) ما يؤيد ذلك .

وفى (عمر) بالراء ما يدل على العلو والارتفاع ، كما جاء فى الجمهرة (٦) .

---

(١) المقاييس ١٥/٤
(٢) الصحاح ١٦٣/٢
(٣) الفجر : ٧
(٤) الصحاح ١٥٦/٢
(٥) المقاييس ١٣٩/٤
(٦) الجمهرة ٣٨٧/٤

وعمرك الله : دعاء بطول العمر . والعومرة : الصياح ، ومنه الاهلال بالعمرة كما ذكر ابن فارس (١) والمعتمر ايضا : المعتم على راسه .

وفى (عمق) بالقاف ، معنى الطول احيانا : فقد ذكر ابن فارس (٢) عن ابى الاعرابى : العمق اذا كان صفة للطريق فهو البعد . واذا كان صفة للبئر فهو طول جرابها .

وفى مادة (فص) بالفاء والصاد ، ما يدل على الفصل بين شيئين ، كما ذكر ابن فارس (٣) .

والفصوص : مفاصل العظام ، قال ابو عبيدة : الا الاصابع . وفص الجرح : سال . وقال الجوهرى : فص الأمر : مفصله .. ومعنى الفصل هذا موجود فى ثلاثى هذه المادة :

ففى (فصح) بالحاء ، معنى الانفصال ، يقال : فصح اللبن اذا أخذت عنه الرغوة ، كما ذكر الجوهرى (٤) .

وفى (فصد) بالدال ، معنى الانفصال ، يقال : فصد العرق والناقة ، اذا قطع العرق ، فخرج دمه ، كما ذكره ابن دريد وغيره (٥) .

وفى (فصع) بالعين ، معنى خروج شيء عن شيء ايضا (٦) : وقال الجوهرى (٧) : فصعته من كذا تفصيعا ، أى اخرجته فانفصع .

وفى (فصل) باللام ، وضوح معنى الفصل ، كما فى سائر المعاجم ، ومنه الفصيل اذا انفصل عن الناقة ومفاصل العظام .

وفى (فصم) بالميم ، وضوح معنى الفصل ، كما فى سائر المعاجم ، فصم الشيء كسره من غير أن يبين وقال تعالى : ((**لا انفصام لها**)) (٨) .

---

(١) المقاييس ٤/١٤١
(٢) المقاييس ١/١١٤
(٣) المقاييس ٤/٤٤٠
(٤) الصحاح ٢/٢٤٤
(٥) الجمهرة ٢/٢٧٣
(٦) المقاييس ٤/٥٠٧
(٧) الصحاح ٢/٢٤٤
(٨) البقرة : ٢٥٦

وفى (نصى) بحرف العلة ، دلالة على الانفصال أيضا ، يقال : نصيت الشيء انصيه نصيا ، اذ أبنته منه ، كما ذكر ابن دريد (١) . وقال الجوهرى (٢) تنصى الانسان اذا تخلص من الضيق والبلية ، وتنصيت من الديون اذا تخلصت منها ، وقال الجوهرى ايضا : انصم المطر : اى أقلع (٣) . وانصى المطر ، اى أقلع (٤) .

ومن العلماء من لم يرتض القول « بالثنائية » ، وراح يعترض على القائلين بها ، ولكل وجهة هو موليها .

* * *

(١) الجمهرة ٨٤/٣

(٢) الصحاح ٢٤٧/٢

(٣) الصحاح و (فصم)

(٤) الصحاح : (نصى)

نظرية الثلاثية

وجدنا مؤيـدي نظرية « الثنائية » يرون أن المواد اللغوية نشأت أول أمرها ثنائية ، يتركب كل منها من مقطع واحد مغلق : أي من حرفين أولهما متحرك ، حركته قصيرة ، وثانيهما ساكن .

وان سنة التطور والنمو كانت هي العامل الفعال في اكتناز المـادة الثنائية وجعلها مركبة من ثلاثة احـرف فأكثر .

وكثير من المتقدمين والمحدثين من علمائنا العرب ومن غيرهم ، قـال بذلك ، واشارت كتبهم اليه في ابحاثهم ، وان لم ينصوا عليه صراحة .

وقد عاصرت نظرية الثنائية نظرية الثلاثية ، وناوأتها فترة طويلة ، وكان لها انصارها ومؤيدوها من العلماء العرب وغيرهم قديما وحديثا . وعلماء الصرف والنحو قديمـا من المؤيدين لهـا ، يقولون : بأن أقل الابنية ثلاثة : حرف يبدأ به ، وحرف يوقف عليه وحرف يكون واسطة بين المبدوء به والموقوف عليه ، لتنافي احكامها .

بل وذهب بعضهم الى ان صيغة الكلمة مطلقا — في الساميات عموما — ثلاثية ، وذلك هو القياس في الاشتقاق ، ابتداء من البابلية القديمـة حتى اللغات الحية الآن . .

وعلى اساس ذلك كان عمل اللغويين واعتباراتهم في اصول الجذر الثلاثي للغة ، وقياس ما وجد وما يجد من مفردات اللغة . وهذا تعميم لا يجوز علميـا ، الا اذا ثبت عـلى اسس منهجية .

واضطرهم ذلك الى عـد الثنائي ثلاثيا ، ليوافق ميزانهم (فعـل) ويقبل التصريف على مذهبهم ، ولو كان متكلفا . يقول الخليل : « وقـد تجيء اسماء لفظها على حرفين ، وتمامها ومعناها على ثلاثة احرف ، مثل (يد) ، وانما ذهب الثالث لعلة انها جاءت سواكن وخلقها السـكون ، مثل : (يأيد) في آخر الكلمة ، فلما جاء التنوين ساكنا اجتمع ساكنان ، فثبت التنوين لانه اعراب ، وذهب الحرف الساكن فاذا اردت معرفتهـا فاطلبها في الجمع والتصغير ، كقولهم : (ايديهم ، ويديه) (١)

---

(١) العين ، للخليل بن احمد — تحقيق د . عبد الله درويش ص ٥٥ .

وتعسف النحاة فى اعتبار كل ثنائى ثلاثى الاصل سقط ثالثه لعلة حتى صار عندهم قاعدة ، مع ان العلة لا علاقة لها بأصل البناء ، بل بالوظيفة النحوية داخل العبارة . فالقول بأن الثنائى جاء وفق صيغة قياسية ، ثابتة ، وانه اصيب بعلة ذهبت بعجزه ، أمر أقرب الى الصناعة منه الى السليقة والطبيعة اللغوية .

ولكن ظلت القاعدة مرعية بتوارثها الخلف عن السلف ، يقول ابن مالك :

وليس ادنى من ثلاثى يرى قابل تصرف لما قد غير وعلى كل لعل القول بالثلاثية تأثر كما تأثر تقعيد النحو فى العربية بالمنطق الصورى الاغريقى .

فضلا عن ان العقل لا يقر القول بالثلاثية ، الا اذا بلغ الأمر مرحلة نضج وتفلسف ، واحتياج لتنويع وتصنيف يواكب ما جد وما يجد ، لأن اللغة ظاهرة ترافق المجتمع فى نشوئه ونموه وتطوره ، ولم تصنع مسبقا وفق مقاييس موضوعة ، بل العكس هو الصحيح .

كما أن الثلاثية وما فوقها تمثل مرحلة حضارية فى معانى مفرداتها ، والانتقال من مرحلة العفوية فى الوضع الى القصد والتفكير فيه .

وذكر بعضهم : أن الثلاثى اكثر واخف ، بل وافصح من غيره :

يقول ابن جنى : « ان الأصول ثلاثة : ثلاثى ، ورباعى ، وخماسى . فأكثرها استعمالا ، وأعدلها تركيبا ، هو الثلاثى . وذلك لانه حرف يبتدأ به ، وحرف يحشى به وحرف يوقف عليه .

وليس اعتدال الثلاثى لقلة حروفه فحسب ، ولو كان كذلك لكان الثنائى اكثر منه اعتدالا ، لانه اقل حروفا ، وليس كذلك :

الا ترى أن ما جاء من ذوات الحرفين جزء لاقدر له فيما جاء من ذوات الثلاثة ، واقل منه ما جاء على حرف واحد . فتمكن الثلاثى اذن انما هو لقلة حروفه ، ولشيء آخر : وهو حجز الحشو الذى هو عينه بين فائه ولامه ، وذلك لتباينهما وتعادى حاليهما :

الا ترى أن المبتدأ به لا يكون الا متحركا ، وان الموقوف عليه لا يكون الا ساكنا . فلما تنافرت حالاهما وسطوا العين حاجزا بينهما ، لئلا يفجأوا

الحس بضـــد ما كان آخذا فيه ، ومنصبا اليه ، فقد وضح بذلك خفـــة الثلاثى » (١)

فابن جنى يعتـــد بالكثرة فى استعمال الثلاثى وصوره ، مع اننـــا نعده ثنائيا نوعه الحرف الثالث .

وكلامه عن اعتدال تركيب الثلاثى يشبه كلام الفلاســـفة ، وتفكير المناطقة ، واللغة قامت اول ما قامت بعيدة عن العقل والمنطق ، تساير سذاجة البدائيين واعتباراتهم .

ولسنا نرى تعاديا بين متحرك وساكن . وحسبنا أن ابن جنى اشار الى الثنائى والاحادى .

والدكتور محمد حلمى موسى فى كتابه : (احصاء جذور الصـحاح بالكومبيوتر) ذكر : أن الجذور الثلاثية جاءت فى العربية بنسبة ٨٥ر٣٧٪ الى جميع الجذور التى تبلغ ٥٦٣٩ جـــذرا . والجذور الرباعية جاءت بنسبة ١٢ر٥٨٤ ٪ الى جميع الجذور وجاءت الجـــذور الخماسية بنسبة ٦٧٤ر٪ . وجاءت الجذور الثنائية بنسبة ٣٧ر٪ الى كل الجذور » . وسنعقب على ذلك بعد قليل ، بكثرة الثنائى .

ولعل قلة الثنائى فى نظر القدامى والمحدثين ترجع الى عد الثنائى بدون تضعيف للحـــرف الثـــانى ، مع أن مضاعفات الثنائى فى العربية يقابلها فى الساميات الثنائى بدون تضعيف : اى أن كل المضاعفات فى العربية هى بالحقيقة ثنائيات ، والثنائى وارد فى كل الساميات متصـــفا بمعنى حقيقى وتام . وقد ورد بهذه الطريقة كثيرا من الثنائيات كما ذكر الأب مرمرجى الدومنكى . (٢)

والمجمع اللغـــوى المصرى يعتبر الأخ لغـــة فى الأخ ، واصله : اخو ، فحذفت الـــواو ، اى أن الثنائى المضـــعف فيه لغتـــان : التضـــــعيف وغيره . فاذا ساوينا الثنائى المضعف بما اصله ثلاثى ، فاولى أن تكون المساواة فيمـــا لم يظهر فيه اصل ثلاثى .

---

(١) الخصائص ١/٥٥ .

(٢) المعجم الوسيط (ج ١) أ خ ـــ اخو ، والمعجمية للاب مرمرجى .

وحكى السيوطى فى المزهر قول بهاء الدين السبكى فى عروس الأفراح بأن : « الثلاثى أحسن من الثنائى والخماسى ... وأن من شروط الفصاحة توسط الكلمة بين قلة الحروف وكثرتها ، والمتوسطة ثلاثة أحرف ». وهذا كلام فى الجمال ، ونحن فى الكمال قبل الجمال .

وعلى كل لم تسلم هذه النظرية (الثلاثية) من النقد والأخذ والرد ، وتطرقت اليها المغامز والاحتمالات ، حتى من بين مؤيديها ، والقائلين بها ، وهاك طرفا من ذلك :

قالوا : ان نظام الصرف العربى هو نظام صوتى بالدرجة الأولى ، وان اخطأ القدماء فربطوا بينه وبين الشكل الكتابى ، وقد تسنح لنا فرصة .. لتقديم بعض شواهد هذا الخلط ، بين الظواهر المتباعدة ، داخل نظام علمى ملفق ، قام على احكامه ذكاء القدماء ، وتلدتهم فيه الأجيال حتى يومنا هذا .. » (١) .

ومعنى هذا انه لابد من اعادة النظر فى قواعد العربية ، وفق نظريات علم اللغة الحديثة . اذ مع احترامنا لعلمائنا القدامى ، والقول بفضلهم وسبقهم ، الا ان قلة امكاناتهم وقتذاك ، وما جد الآن من تقنيات ، جعل مسافة الخلف فى الأصوات واسعة .

ومن علمائنا من يرى — بعد عرض النظريتين — أن نساير « وجهة نظر القائلين بأن أصول الألفاظ ثلاثة ، كما هو موجود فى الاستعمال فعلا :

لان مرحلة الاشتراك فى الحرفين مرحلة تاريخية لم يعد البحث فيها مجديا الا ضمن بحث تاريخى .

ولان الأمثلة التى ذكرها « الثنائيون » لا تكفى لاثبات نظريتهم على استقراء واسع .

ولانه لابد من اشتراك الساميات كلها — كأخوات للعربية — فى بحث واسع عن تلك المرحلة التاريخية ...

ثم يذكر : ان البحث فى ظاهرة الثنائية لم يجىء عفو الخاطر ، بل

---

(١) فى التطور اللغوى د . عبد الصبور شاهين ، ص ٢٠ .

لابد وان في العربية من اسرارها وروابطها ، ما هو جدير بالبحث والتحري والامعان .. ويدعو المهتمين باللغة الى متابعة البحث ، للوصول الى الراى القاطع في المشكلة . » (١)

وهو بذلك يساند الثلاثية كواقع كثير فعلى ، ويشير اليها كحدث وقع في مرحلة تاريخية ، يعوزه البحث الواسع العميق ، والمقارنة الواجبة الواعية . وكان الاولى — في نظرنا اعتبار الثنائية من مدخرات النشأة الاولى للغة ، الدال على قدم تاريخها ، ومدى التطور الذى أصابها ، والنمو الذى بلغته كما انه يدعو الى دراسة الساميات وهذا ما ندعو اليه ونرحب به .

وبعضهم يرى أن الأمر وان انحدر في أصول العربية من الثنائية انه يعترف بواقع الثلاثية الآن ، يقول : « ومن استعراض حقل المفاهيم العربية نجد ان هذه — امثلة الثنائية — وان جاءت من حرفين اصليين خصهما بمعنى واضح حرف ثالث — تتألف الآن من ثلاثة حروف صامتة ، تؤدى بتجمعها فكرة عامة .

ولئن عرفت العربية عبر تاريخها الحافل مفاهيم تعود الى اصول غير ثلاثية ، تعدل ما هو غير ثلاثي ، وتدخله في صميم التركيب العربى : اى تنطلق معظم الكلمات العربية من مرتكز بنيانى اساسى ، هو الاصل الثلاثى » (٢) .

فهو يشير الى الثنائى ، ويعترف بالثلاثى لكثرة استعماله ، وكان أولى به أن يشير الى ان الثنائية من هذا المنطلق : من مدخرات النشأة الاولى للغة ، أى عهد ما قبل القياس ، قبل أن تستقيم على قياس وقواعد .

لا ان يحكم بأن الثنائية تشكل مرحلة تاريخية من مراحل التطور ، وتحولت الى أصول ثلاثية ، بفعل تحولات داخلية بحتة ، كالمد والتضعيف والزيادة .

❋ ❋ ❋

---

(١) فقه اللغة العربية د . ابراهيم نجا ، ص ٨٨ ، ٧٩ .
(٢) الألسنية العربية ، للاستاذ ريمون طحان ، ص ٨٦ .

ونجد من أيد « الثلاثية » من المستشرقين ، يشير الى احتمالات تؤيد « الثنائية » في اللغات السامية ـ بعامة ـ أكثر من الثلاثية :

يقول العلامة الالماني (جزينس) :

ان ثلاثية الأصول اللغوية في الفعل والاسم تلتزم بدقة واطراد في اللغات السامية ، ادرجة أن اللغة في بعض الحالات تصطنع طرائق معينة للاحتفاظ بثلاثية الاصول ذات المقطعين ، ولو بصفة ظاهرة ، كما في : (عدة وثقة) وكما في الأسماء الستة العربية .

غير أن كثيرا من الاصول الثلاثية يمكن ردها الى اصول ثنائية ، فسميها جذورا ، تفرعت منها جذوع ثلاثية وفوق الثلاثية . (١)

وفي نفس الاتجاه ، يقول العلامة ، (رينان) الفرنسي :

« ان من بين الأصول الثلاثية انواعا من الأفعال ، تعد ثنائية ولا تعد ثلاثية ، الا لاعتبارات صرفية ، تلك هي الأفعال المضعفة والمعتلة التي لا يكون فيها لتكرار الحرف الثاني ، او لاضافة حرف العلة تأثير يذكر في تغيير المعنى الأساسي الذي يفيده الاصل « الثنائي » ، ومثل لذلك بمادة : (ند) وناد ، وتندد ، وندا ، بمعنى تمايل وتفرق ..

ثم يعود (رينان) فيقول : « وان الافعال الثلاثية المركبة من حروف صحيحة ، نجد في جميع الحالات تقريبا ان احد احرفها الثلاثية أضعف من الآخرين ، وانه لا يحدث في المعنى الأساسي الا تعديلا طفيفا » (٢) .

فهو يعد من الأفعال الثلاثية افعالا ثنائية الأصل ، وان كانت ثلاثية الصورة لاعتبارات صرفية ، ويجعل أحد الأحرف الثلاثية ضعيفا ، ولو كان صحيحا .

وهذه ظاهرة تستوقف النظر وتواكب ما ارتآه الشيخ العلايلي حين جعل (عبل) من (علا) المعتلة ، واصلها (عل) (٣) .

---

(١) مجلة كلية الآداب الليبية ج ٤ ص ٣٠٨ .
(٢) المصدر السابق ص ٣٠٩ .
(٣) فقه اللغة العربية للدكتور نجا ، ص ٨٦ .

ونجد من الباحثين من يضع مفردات العربية في نظام رياضي ، قوامه الهيكل الثلاثي ، وكأنه بذلك يضعنا أمام الأمر الواقع ، فيرى : أن العربية لغة الأحرف التي تخضع في وضع مفرداتها لنظام رياضي متكامل ، يتألف الهيكل عادة من ثلاثة حروف صامتة ، ترتبط به ، أو تتجمع حروفه لتؤدي فكرة عامة حسية قد تعمل بها عوامل التجريد ، والتصعيد ، والتعميم ، والتخصيص ، والانتقال بالمعنى (Mu Tation) ويتخذ الهيكل الأصلي اجسادا واشكالا وصيغا تعود رغم تنوع معناها الى الفكرة الأساسية المشتركة » .

والطريف أن النظام الرياضي المتكامل – الذي اعتقده – جمله يقدم على احصائيات عددية ، نظن أن لغتنا لا تتحمله عمليا ، يقول :

« ويمكن احصاء المفردات العربية التي تتألف من صوت واحد بالطريقة التالية : تتألف اصوات اللغة العربية الصامتة من ٢٩ حرفا – باعتبار الهمزة – تدخل عليها الحركات الخفيفة والممدودة ، (اي الفتح والضم والكسر ، في حالتي الحركتين : الخفيفة والممدودة) فيكون ما يتألف من حرف واحد هو ٢٩ × ٦ = ١٧٤ مثل : (فم = فا ، في ، فو ، ذا ، ذو ، ذي ... وبعض حروف العطف ، والاستفهام ، والجر ، والقسم ، والنجبة ، والنداء .

وبعض الضمائر المتصلة المرفوعة ، والمنصوبة ، والمجرورة .

وفي (أمر) اللفيف المفروق ، مثل : ق ، ف ، ش ... من : وقى ، وفى ، وشى . واشبع العرب وهن الصوت المنهوك بهاء السكت ، فقالوا : قه ، فه ، وشه (١) .

ويذكر أن العربية اعتمدت في وضع مفردات تتألف من حرفين صامتين ، تضاف اليهما الحركات الخفيفة والثقيلة ، ويتم ذلك نظريا بالعملية الحسابية التالية : ٢٩ حرفا ، أو ٢٨ (باسقاط الهمزة التي تتلاشى أحيانا في حركات المد) فتكون ٢٨ × ٢٧ = ٧٥٦ ، ولا نجد عمليا في العربية الا عشرات من الكلمات فقط ، وردت في بعض كتب اللغة ، مثل (أب ، أم ، أخ ، أخت ، حم ، دم ، يد ، بن ، بنت اسم ، شفة ، رئة ...)وقد

---

(١) الألسنة العربية ، للاستاذ ريمون طحان ، ص ٧٦ ، ٧٧ .

الحقت ببعض هذه الثنائيات احرف اضافية ثلثت لفظها ، وأدخلتها فى الشكل العربى السائد والشائع » (١) .

ولأنه يرى ان معظم الكلمات فى العربية ينشأ عن أصول ثلاثية (ثلاثة حروف صامتة وغير مصوتة) ، هى حجر الزاوية فى اقامة صرح التنظيم الرياضى اللغوى المتكامل ، يقول : ان الثلاثى هو الذى يؤدى الى اكتناز العربية ، ويحدث ذلك نظريا على الشكل التالى :

٢٨ × ٢٧ × ٢٦ (باهمال تنوع حركات الأصول الثلاثية) ينتج ١٩٦٥٦ ويذكر أن العربية قد تكتفى بعدد صغير من الجذور (٣٠٠٠ تقريبا) يتم بموجبها وضع معظم الكلمات العربية » .

وبالتنظيم الرياضى اللغوى ، يرى اننا لو استثمرنا الأصول الرباعية ، لأفضى الامر الى لغة رمزية ، تفوق فيها وسائل التعبير المفاهيم التى قد يستوعبها الفكر البشرى ، اذ ينشأ من الاستثمار : ٢٨ × ٢٧ × ٢٦ × ٢٥ = ٤٩١٤٠٠ ويضاف الى هذا العدد المربع من الجذور مشتقات الرباعى (٢) .

فالاستاذ (ريمون) يشير الى أن اللغة العربية قد تكتفى بعدد صغير من الجذور ، يمكن أن تكون (٣٠٠٠) ، وفى ذلك رد على من يدعى ان الاحصاء اللغوى للثنائيات فى لغتنا اقل من أن تفى بحاجة الانسان ، وبخاصة اذا رددنا كثيرا من أصول الثلاثيات الى ثنائيات ، وأيضا اذا استعنا بقدر من جذور الرباعى الرياضى اللغوى .

أما احصائياته اللغوية بعامة فان لغتنا — عمليا — لا تتحملها ، لأن اللغة — اى لغة — تنشأ طبيعية متدرجة ، تلاحق المضامين الاجتماعية التى سبق المداليل اللغوية ، قلة وكثرة وضيقا وسعة ، تبعا للتطور والحضارة ، يقول الاب مرمرجى :

« اللغة تابعة السنة الطبيعية :

فهى خاضعة لأحوال الانسان المختلفة ، ولأعضاء نطقه ، وللتطورات الاجتماعية وغيرها من المؤثرات .

---

(١) المصدر السابق ص ٧٨ .
(٢) المصدر السابق ص ٨٦ ، ٨٨ .

وهى فى بعض اجزائها : قياسية ، منتظمة ، محكمة . وفى البعض الآخر : سماعية لا ضابط ولا قيد لها .

وقواعدها ليست قواعد حسابية رياضية .

ولا هى شبه الكتب المعدة للطبع التى تنضد حروفها ، وتضبط صحائفها بالآلة الطابعة ، فيمكن الطباع ان يستخرج منها عددا من النسخ غير المحصاة ، واحدتها ضهية اختها ، دون اختلاف » (١) .

وهذا الكلام بما نحن فيه الیق وانسب ، ويتمشى مع طبيعة اللغة التى قدمنا انها لم تكن فى اول امرها منطقية ، لأنها حينئذ لم تعرف المنطق ، ولكنها واكبت الطبيعة والحياة فى تدرجها ، سنة الحياة والأحياء .

* * *

(١) معجميات عربية سامية ص ١٠٨ .

الثنائية في الميزان

القائلون بنظرية « الثنائية » منطقيون ، ولم يبدأوا من فراغ ، ولم يكونوا اسارى الوهم والخداع ، كما لم يخفهم التحرض والجرأة على قول ما قالوا ، وما اثير في وجههم من اعتراضات لم تثبت عند التنفيذ :

● فقد استنتج (جورجي زيدان) : ان لغتنا مؤلفة اصلا من اصول محصورة عدا ، احادية المقطع ، معظمها مأخوذ عن محاكاة الأصوات الخـارجية ، وبعضـها عن الأصـوات الطبيعية التى ينطق بها اللسان غرزيا . وبنى استنتاجه على مرتكزين يؤيدهما الواقع ، وتسندهما الشواهد ويخدمان قضية الثنائية ، وهما — كما اسلفنا —

أن الألفاظ المانعة الدالة على معنى فى غيرهـا — ويقصـد بهـا الادوات — انما هى بقايا الفاظ ذات معنى فى نفسـها .

وان الألفاظ المانعة الدالة على معنى فى نفسها يرد معظمها بالاستقراء الى اصول ثنائية تحاكى اصواتا طبيعية ، وتضم الاسماء والافعال ومـا يشتق منها .

وحين قرر ذلك جورجي زيدان ، لاحظ أن الالفاظ المتحدة تتقـارب لفظا عند اشتراكها فى حرفين ، هما : حامل المعنى الاصلى ، ثم يأتى الحرف الثالث — على الجذور الثنائية التى هى حوامل المعانى — لتنويع المـادة اللغوية ، وتطوير الاستعمال الدلالى فقط ، عن طريق الاشتقاق الكبير ، والاكبر ، والكبار (النحت) .

وهو بتقريره ليس بدعا بين اللغويين ، فقد اشار الى ذلك : الخليل ابن احمد ، وسيبويه ، والفارسى ، وابن جنى ، وابن فارس ..

ووصف بعضهم هذا الاتجاه بالمغالاة ، وأحلام اليقظة والتخيلات . يقول الدكتور انيس : « لقد غالى ابن جنى فى هذا ، ومعه الثعالبى صاحب (فقه اللغة) : اذ جعلا مجرد الاشتراك فى اصلين فقط من الأصول الثلاثية دليلا على الاشتراك فى عام لبعض الكلمات ، فيقرر : ان المعنى العام (للتفرقة) يكون بصوتى (الفاء والراء) ، والمعنى العام (للقطع) يكون (بالقاف والطاء)

الى غير ذلك من تخيلات وتأملات تشبه أحلام اليقظة ، عند رجل ، اشتد ولعه وأعجابه باللغة العربية ، فيتصور فيها ما ليس منها ، وأضفى عليها من مظاهر السحر ما لا يصح في الأذهان ولا تتصف به لغات من لغات البشر » (١) .

وفي قول الدكتور أنيس الغاء سريع للمسألة برمتها ، واهمال لما قرره الأقدمون في هذا الصدد ، وما حوته بطون المعاجم وتقبله العقل وأيده الاستعمال ، والتذوق الراقي .

ومن يطلع على البحث التطبيقي عن : (ثنائية الألفاظ في المعاجم العربية وعلاقتها بالأصول الثلاثية) ، ويتابع ما بدأه بتأن وروية ، يجد صدق وثبات وصحة ما قرره السلف من علمائنا .

والشيخ العلايلي يمتدح جورجي زيدان بأنه : تنبه الى أن الثلاثي متفرع عن ثنائي سابق لا في الاشتقاق فقط ، كما فهمه الأقدمون حين ذهبوا يطبقونه في الأبدال وتعاقب الحروف ، بل في النشوء اللغوي أيضا .

ويضيف الشيخ العلايلي : بأننا اذا حاولنا انصافا ، فلم تكن أفكاره في فحواها بأكثر من أفكار كتاب « العين » التي بثها الخليل بن أحمد ، وأرسلها ارسالا (٢) .

ولذا يدعونا الدكتور عبد الصبور شاهين ، الى أن نحسن تتبع آراء الأقدمين في مظانها ، وأن نستقصي بصورة كاملة مذاهبهم ، ليتم تحقيق التكامل بين آرائنا وآراء الأقدمين . (٣) وهي دعوة حرية بالمسارعة بالقبول ، لخدمة لغة الضاد .

* * *

● ويتفق أصل الوضع اللغوي عند العلماء القائلين بالثنائية ، مع الواقع والطبيعة في تدرج الأشياء :

---

(١) من أسرار اللغة ، ص ٦٧ .

(٢) مقدمة العلايلي ص ١٣٦ .

(٣) في التطور اللغوي ص ٩٠ .

فقد نطق الانسان اولا مقاطع واحدة ، او (هجاء واحدا) ـ كما يرى الأب انستاس الكرملي ـ أي بناء مكونا من صامت ومصوت (سواء أكان المصوت فتحة أم كسرة أم ضمة) وربما اتبعه بصامت ، فتتكون الصورة المقطعية ؛ وهي بذلك في اجمالها اشارة الى مصطلح الهجاء الواحد ، وتلك نظرة تساير الواقع ، ولا تختلف نظرة الأب مرمرجي عن هذه النظرية الا بمصطلح شكلي ، هو الثنائية ، لأن الكلمات بين يديه تتكون من رمزين مكتوبين ، بصرف النظر عما بها من مصوتات هي في الحقيقة عناصر صوتية اساسية .

ورأينا كيف جعل الشيخ العلايلي ادوار اللغة متدرجة شبه طبيعية تترقى في ادوارها بترقى الانسان ومتطلبات حاجياته . فسلك الانسان لذلك سلوك « الاحادية » ، ثم « الثنائية » في اختراع اللغة ، ثم كان اكتنازها بعدئذ لتكون اكثر خصوبة واسخى عطاء ، فتتمكن من العطاء الواسع ، والوفاء بما تتطلبه الحياة والاحياء .

فكان الدور الاول ، للمقطع الاحادى البسيط للانسان البدائي .

والثاني للمقطعين ، حين ترقى الانسان بعض الشيء ، فحاكى اصوات الطبيعة .

وكان الدور الثالث للجمع بين الدورين السابقين ، فالف منهما دلالة مركبة ، تفى بتغطية متطلباته والمداليل الاجتماعية التى تدرجت في خمس حلقات طالت حتى بلغ الانسان رقيه ، والحضارة ذروتها .

وذلك لان : « طريقة الاشتقاق والتوسع في الساميات قائمة على الارتقاء من الأقل والأنقص الى الاكثر والاكمل ، اى حسب السنة الطبيعية : سنة الرقي ، وليس بالعكس الا من باب الاختزال وهو نادر ، ولا يحدث في طور التكوين والنشوء ، بل في عصر الكهولة والهرم ... والعلاقة الأساسية الثابتة ـ غالبا ـ وجودها بين المشتق والمشتق منه هي اللحمة المعنوية ، مع توسع الدلالة وتطورها : بالانتقال من حيز المعاني المادية الحسية ، الى حيز المداليل المجردة والمجازية ، ثم العقلية والروحية » .

هذا بعض ما قاله الأب مرمرجي تأييدا لسنة الترقي الطبيعية في اللغة ، شأن اى شيء يتدرج ولا بأس به من طريق ـ معقول ـ لتوسع اللغة ، وتكثير مفرداتها ، لتغطية الأحداث والمتطلبات حقيقة وعقلا وخيالا ، وكمالا وجمالا .

* * *

والأب مرمرجي يؤكد ، ويصر — في موضوعية وخبرة — على أن الزيادة — التي تمت بها التوسعات — لم تكن اعتباطا ولا عشوائية ، : « دون ضبط الحرف المطلوب ، ودون تخصيص الدور القائم به في ميدان الزيادة » ، وبملاحظة : أنه « في طور التكون اللغوي تبدأ الزيادة بالحروف عن طريق السماع دون القياس ، فتنشأ بضرب من الفوضى ، ثم تسير رويدا رويدا في سبيل التكامل والاستقرار ، فمنها ما يبلغ درجة القاعدة والقياس المطلق أو النسبي ، ومنها ما يتخلف فيبقى دون نظام ... وقد تجرى هذه الزيادة بالحروف ، بعض الأحيان لمقاصد تلوح متضاربة ، لا بل متضادة : » كياء المضارعة التي تستعمل « للغائب ، والمثنى ، وللجمع : المذكر والمؤنث ... والتاء التي تدل على المخاطب المذكر والمؤنث ، وعلى المثنى والجمع المذكر والمؤنث » .

وهذا ما ذكره الأب مرمرجي ردا على اعتراض (J.A.D,M.) في مجلة (Arientlia) الصادرة في رومة (١) بأن الزيادة التي تذكر تتويجا أو اقحاما أو تذليلا — انما هي اعتباطية وغير منضبطة .

وهذا الرد منطقي يتمشى مع طبيعة اللغة واقعا ، وتاريخا محفوظا يؤيده السماع والقياس والاستعمال ، وبخاصة في فترة التدرج وعدم الاستقرار اللغوي التام .

يقول الشيخ العلايلي :

ان العطاء الواسع والاحكام اللغوي ، انما حصل حين صار الثلاثي وحدة الكلمة ، فتوسع بالاشتقاق والتصريف ، أما حين كانت الاضافة للبناء ، كانت الاضافة للثنائي ، وعلى ذلك :

فقد كانت الزيادة للبناء ، وهي ما تضاف للثنائي ، لصوغ الثلاثي ، وموضعها الوسط .

وحين كانت للاشتقاق ، وتضاف الى الثلاثي لتحصيل الرباعي وغيره ، وموضعها الآخر .

وحين كانت للتصريف ، كتفعل واستفعل ... كان موضعها الأول غالبا .

وواقع اللغة يثبت ما قاله الشيخ العلايلي في البناء والاشتقاق والزيادة ، والعربي يملك لغته وهي شغله الشاغل ، تترقى معه ، وينميها حين تضطره الحاجة بوعي وسهولة ، والحاجة أم الاختراع والتطوير .

* * *

(١) جزءا ، مجلد ١٩ ص ٢٠٧

من ميزات الثنائية

● اصحاب نظرية الثنائية ، يحلون المشاكل اللغوية ، دونما عناء ولا تعسف :

من المسلم فى اصول اللغة ، أن هناك مناسبة بين اللفظ والمعنى تظهر للمتأمل الحصيف .

وأن المادة تدور حول معنى واحد ، مثل : حدق ، وأحدق ، والحديقة . بمعنى الاحاطة .

وأن معانى البناء الواحد تتلاقى مهما اختلفت أوضاع حروفه ، مثل : ركب ، وكرب ، وبرك ، وربك ، وبكر ، وكبر .. بمعنى عظم واشتد واجهد .

وأن الألفاظ تتقارب لتقارب المعانى : مثـل : أز ، وهز .. بمعنى التحريك . وقد تنشأ مشاكل من اختلاف دلالة الثلاثى احيانا ، مثل : (نهر)، التى وردت فى جميع الساميات عدا الحبشية ، بمعنى : (الجرى او السيلان، وبمعنى : الزجر فى العربية ، وبمعنى النور والضياء) .

فالمعانى كما تبدو متباعدة ، لا يربطها رابط . وهنا تختلف النظرة لحل المشاكل :

فالحل من منطلق اصحاب نظرية « الثلاثية » يدخل فى نطاق الفرض والتخمين والاحتمال .

فقد أشاد بعض العلماء (١) ، بمحاولة الأستاذ الدكتور ابراهيم انيس (٢) حين لخص العوامل التى تسبب تغير المعنى عند تعدد دلالات اللفظ ، فهى :

قد تكون بسبب الانتقال من الحقيقة الى المجاز .

أو بسبب سوء فهم المعنى ، كما يحدث للاطفال أحيانـا فى البيئات المنعزلة .

---

(١) فى التطور اللغوى ، للدكتور عبد الصبور شاهين ص ١٢١ — ١٢٣ بتصرف .

(٢) فى اللهجات العربية ص ١٩٩ وما بعدها .

او بسبب استعارة اللغة لكلمة تماثل صورة لكلمة فيها ، مثل استعارة « البرج » بمعنى الحصن من (اليونانية) على حين ان مادة (برج) تفيد فى العربية : التزين او صفة خاصة فى العين .

او بسبب نسيان معنى الكلمة الأصلى القديم ، ثم استعمالها فى معنى جديد بمرور الزمن ، مثل : (المجرس) بمعنى (القرد) فى الحجاز ، وبمعنى (الثعلب) عند بنى تميم .

او بسبب تطور الصورة الصوتية فى لفظة ، حتى توافقت مع صورة صوتية اخرى ذات معنى مستقل ، كدلالة (التغب) بالتاء ، على معنيين هما : الوسخ والدرن ، والقحط والجوع . ويظهر ان دلالتها الأصلية هى (الوسخ والدرن) أما دلالتها على (الجوع) فناشئة عن تطور لفظة (السغب) فى بعض البيئات التى تقلب السين تاء ، كما يقول بعض اهل اليمن (النات) بدلا من (الناس) ، ثم جاء جامعو اللغة ونسبوا معنيين مختلفين لكلمة (التغب) وعدوها من المشترك اللفظى » . ويرى الدكتور انيس بأن المعاجم فيها الكثير من ذلك .

اما اصحاب « الثنائية » فهم يرون : ان الثلاثى (نهر) ليس اصلا لهذه المعانى على نسق واحد ، بل كل واحد منها آت من مصدر خاص به ، وما الثلاثى الا بمثابة الحوض الذى تصب فيه مياه منبجسة من ثلاثة ينابيع ، فتتلاقى فيه ، فينشأ من ذلك لفظ واحد ذو ثلاثة معان » .

وعلى حسب معرفة موقع الحرف الذى ثلث المادة « الثنائية » — تتويجا ، او اقحاما او تذييلا — نجد المعنى المناسب ، لأن المادة الثلاثية صادرة نسبة الى كل معنى من معانيها عن ثنائى خاص ، بينه وبين الثلاثى المشتق منه صلة معنوية ثابتة » كما يقرر الأب مرمرجى (١) ، مثلا :

الثنائى : (نه) ذيل بالراء ، فنجم عنه (نهر) بمعنى الزجر ، وقد وردت صورة الثنائى فى المضاعف (نهنه) .

(والثنائى : (هر) توج بالنون ... فصدر عنه (نهر) ، بمعنى الجرى او السيلان ويشهد له (هرهر) لصوت الماء الكثير .

---

(١) المعجمية ص ١٣٥ — ١٤١ ، ومعجميات عربية ص ٢٠٠

(والثنائي : (نر) اقحم فيه الهاء ، فجاء منه (نهر) بفحوى انار واضاء . وجاء من الثلاثي الأجوف (نار) بمعنى اضاء ، ومنه لفظ (النار) للاشتعال ، و (النور) وهو الضياء) .

واين هذا مما ذكره الدكتور انيس من احتمالات وتقديرات وتاويلات ؟

وقس على هذا النمط في الاضداد (طلع) بمعنى ظهر وغاب ، من الثنائي (طل) وذيل بالعين ، فصدر عنه طلع بمعنى ظهر . والثنائي (طع) اقحم فيه اللام ، فنجم عنه طلع ، بمدلول اطمأن ونزل ، وهو منحوت من (طل) و (طع) على طريقة (جورجي زيدان) ، وان كان لا يرتضي هذه الطريقة الآب مرمرجي .

قس على ذلك ايضا (امر) من (أم) و (حمر وخمر) من (حم وخم) ... (١) .

وتلك طريقة فيها من السهولة ما حل المشكل ، وأرضى الباحث ، وأوصله الى راحة في خط يتسم بالدقة والطرافة ، وتعززه الشواهد .

● معتل الافعال في العربية والساميات عموما ثنائي لا ثلاثي ، وبخاصة في حالته الاولى :

فقد امتد خلاف العلماء في ثنائية الافعال المعتلة ، من العربية الى أخواتها في السامية على نحو ما يروى عن (الآب هنري فليش) في دراسته للنحو السامي : فالبعض يفترض ثنائيتها منذ بدايتها ، وآخرون يقرون أنها نشأت ثلاثية .

ويقول المستشرق (ف . ر . بلاك ان الموقف الأول — ونحن معه في ذلك — طبيعي ، لأن المصوت الطويل في الأفعال التي يكون الصامت الثاني من اصلها واوا أو ياء ، انما يأتي من اطالة المصوت القصير الداخلي في الثنائي (قل Qala) فتصير (قال Qaala) وكذلك قل Qila) تصير (قيل Qiila و (يقل Yalqolo) تصير (يقول Yalqoolo) . وبهذا دخلت في نظام الفعل الثلاثي .

بينما يؤيد الآب (هنري فليش) أنها كانت منذ البدائية ثلاثية ، اذ

---

(١) المصدر السابق .

يلاحظ هذا الوضع الثلاثي لها في الجفرية والتجرية من اللغات الحبشـيـة ، ولأن المصـوتات الطويلة انما هي نتيجة القلب او الحذف » (١) .

ولكن اذا علمنا :

أن (الأب فليش) يقرر أن في العربية وفي أخواتها الساميات أصولا ثنائية .

وأن المستشرق (رينان الفرنسي) يقول — كما ذكرنا من قبل — بثنائية المعتل من الأفعال ، لأن اضافة حرف العلة ليس له تأثير يذكر في تغيير المعنى الأساسي الذي يفيده الأصل الثنائي ، بل ويمتد عدم التأثير السابق الى الفعل الصحيح غالبا ، لأن أحد حروفه أضعف من الآخرين .

واذا تذكرنا أن الشيخ العلايلي قال : ان المعتل من بقـايا العهـود السحيقة ، وأنها أثرية وجدت قبل انتظام الوضـع اللغوي ، وأن اعتبار المعتل ثنائي هو اتجاه سليم من الناحية الصوتية ، كما جاء في (التطور اللغوي) .

اذا اعتبرنا ما سبق أمكننا أن نقرر وجهة نظر القائلين بأن معتـل الأفعال — ولا سيما معتل العين — وضع ثنائي ، في واقعه واستعماله ، وفي حالته الأولى .. فالمعتل ثنائي الحق بالثلاثيات وهو ثنائي لفظـا ، وان بدا ثلاثيا خطا في العربية .

أما حين تشير بعض تصاريف الكلمة الى الثلاثية ، فنبادر بالقول : بأن ذلك طريق من طرق اكتناز البنية « الثنائية » — كما أسلفنا — في العربية .

* * *

والمضعف أصله ثنائي ، ولم يبد ثلاثيا الا في الصورة ، ولم تكن ثنائية خداع :

فتضعيف الحرف — كما قلنا — طريق من طرق الاكتناز ، وصـورة المضعف كان في الأصل ثنائي المقطع ، نظرا الى الصورة الملفوظ بها ، دون التفات الى الحرف المكرر بمثابة حرفين :

يقول ابن دريد : « والثنائي الصحيح لا يكون حرفين البتة الا والثاني

---

(١) العربية الفصحى ص ٢٥٠

ثقيل (اي مضعف) حتى يصير على ثلاثة أحرف : اللفظ ثنائي ، والمعنى ثلاثي ... » (١) .

ويعلق الدكتور ابراهيم نجا ، على ذلك بقوله :

« واعتبار المضعف الثلاثي من باب الثنائي ليس غريبا عن علماء اللغة قديما وحديثا ، خاصة وأنهم ينظرون الى اللغات السامية بمنظار واحد — كما فعل الأب مرمرجي — فقد عقد موازنات بين المضعف الثلاثي في العربية، وبين ما يقابله في السريانية ، فتبين أنه لا يقابله في السريانية الا حرفان ، مثل (مص) بتشديد الصاد ، فيقابلها في السريانية (مص) باسكان الصاد ... » (٢) .

ولكن الدكتور رمضان عبد التواب ، يرى أن الأب مرمرجي ، قد « خدعه ما آل اليه المضعف الثلاثي في بعض اللغات السامية ، بعد أن سكنت اواخر كلماتها ، لسقوط الحركات الاعرابية وغيرها ، فضاع التضعيف منها وصارت على حرفين ، فظن هذا هو الأصل فيها ... ونسي الأب مرمرجي : انه عند اسناد المضاعف الى الضمائر في العبرية والسريانية ، يظهر التضعيف » (٣) .

وأقول : ان الأمر ليس فيه خداع : فالثنائية باقية للمادة وان ضعفت ، كما أن المضعف لا يفقد ثنائيته اذا ارتد الى معتل العين ، مثل : (كاع ، ذام ، زير ، مير) من (كع ، ذم ، زر ، مر) . (٤) .

- فالتضعيف حقق للكلمة العربية الانتقال من الثنائية الى الثلاثية في اواخر الدور الثاني في رأي الشيخ العلايلي .

يضاف الى ذلك أن الثلاثي حين تفرع عن ثنائي سابق ، انما كان ذلك في النشوء اللغوي قبل أن يكون في الاشتقاق فقط . فاذا احتفظت وحفلت قواميسنا العربية — وفي مقدمتها معجم مقاييس اللغة لابن فارس — بالتضعيف ، ويبدا الثنائي في صورة الثلاثي ، فان مرد ذلك الى الانتقال من مرحلة الى اخرى .

***

---

(١) معجم الجمهرة ، لابن دريد ١٣/١

(٢) فقه اللغة العربية ، د . نجا ، ص ٨٤ ، ٨٥

(٣) فصول في فقه اللغة ص ٢٦٦

(٤) مقدمة العلايلي ص ١٣٢

الثنائى كثير

الثنائى ليس بالقليل فى العربية : كان الاحادية فى التعبير كافية فى المرحلة الأولى لانسان لا يرتفع عن النوع وليس له من مطالب حياته المعيشية سوى الضروريات التى يحتاج للتعبير عنها .

وحين دعته الحاجة للتعبير سلك طريق الثنائية ، وذلك أمر مسلم به فى اختراع اللغة وتدرج الاشياء ، وله آثار فى كل لغة انسانية احتفظت بأصولها القديمة السحيقة . واذا بدت قليلة فهى — عند البدائيين — كافية .

وقد اتى من الاسماء والأدوات والحروف تنشيء الكثير ايضا ، مثل : أب ، أخ ، حم ، ابن ، يد ، دم ، شفة ، لثة ، رئة ... ومثل : كم ، وما (الموصولة) ... ومثل : لو ، لا ، بل ، ما (النافية) ..

واذا اعتبرنا الثلاثى وما فوقه مخصبا من الثنائية ، كان عدد الأصول الثنائية كثيرا ويقرر الدكتور محمود حجازى : ان اكثر الكلمات الثنائية : « قد تطورت فى اتجاه الثلاثى لاحداث ضرب من التوازن ، لكى تصبح مماثلة لأكثر الكلمات العربية ، وهى الكلمات الثلاثية » (١) . فمنها ثنائى ، ومنها ثلاثى ، ولعل فى هذا ضرب من التوازن على هذا الرأى .

وليست نشأة اللغة فى أوليتها منطقية ، حتى تخضع التقدير الكمى ، وقياس (الكومبيوتر) ، حتى تقبل بعض موادها ، ويرفض البعض الآخر ، اذ لم يكن هناك منطق ولا قياس ، وانما هناك تعبير يواكب فى تدرجه وتطوره تطور الكائن الحى الذى ينطق . فالقدر الضئيل من الثنائى — فى نظر بعض الباحثين المعاصرين — كان كافيا فى الفهم والافهام والتعبير والتغطية والاشباع والامتناع فى اعتبارات السذج وقتذاك .

فالثنائية ليست قليلة ، باعتبار معايشتها لفترة الانسان البدائى ، بل تذكر المعاجم طائفة كبيرة من المفردات ذات الصوتين الصحيحين ، من

---

(١) علم اللغة العربية ص ٢٠٦

الاسـماء ، مثل (عم ، فم ، هـم ، دم ...) ، ومثل : (صـال ،قال ، دعا ، سعى ...) من الافعال .

وايضا وجود طائفة اكبر من بنات الصحيحين المضعفة الثاني ، نحو : (اب ، اد ، مج ، حج ، مد ، شد ، هد ، من ، كف ، تم ...) وهي كلها ثنائيات جرى عليها بعض التغيير الصوتي عند الاسناد أو الاضافة ، لاسباب صوتية محضة .

وهناك بحث حديث قيم ، اثبت ان ما كتب بالخط المسماري ، منذ اربعة آلاف سنة ، قبل الميلاد ، دلل على وجود صلات لغوية بينه — ما كتب بالخط المسماري — وبين لغات الجزيرة الحية ، ولا سيما العربية .

وان اللغة الأكدية (السامية) أول واقدم لغة مدونة بقواعـدها .. يغلب عليها البناء (الثنائي) المقطعي للكلمة ، ويعد هذا البناء الصـورة الأولى لتشكيل الوحدات الدالة على المعاني ، والتي تكون الجذر أو النواة التي تدل على المعنى المطلق في الأصل ، ثم تتطور من حيث الشكل بالتغيير الحركي الداخلي ، او بالاضافة اليها ، لتدل على معان جديدة ، تشـترك مع الوحدة الأولى في المعنى الكلي ، وتتميز عنها . بمعنى جزئي خاص . (١) .

واللغة ترافق الانسان ، والانسـان في تغير دائم .

وذلك كله يدل على اتفاق لغات الجزيرة في كثير من السمات ، وكثرة وجـود الأبنية الثنـائية المفردات ، ذات العلاقة الوثيقة المباشرة بالحياة الاجتماعية البدائية والوثيقة الصلة بشئون الحياة اليومية .

كما يؤكد الدلالة على ان المفردات الأولى للغة كانت ببساطة شئون الحياة ذاتها ، وتتعلق بالانسان واعضاء جسمه ، مثل : (يد ، فم ، رأس ، سـن ، كف ، دم ...) . او تتعلق بذوي قرباه ، مثل : (أب ، أم ، أخ ، عم ، بن ابن ، بنت ...) . أو تتعلق باحداث الحياة البدائية ، مثل : (قام ، نام ، صال ، راح ، جاء ، شد ، يد ، عد ، هد، كل ، خذ .) ثم جاءت الأبنية (الثلاثية) تحمل معاني حضارية ، تدل على الاسـتقرار واتساع الحياة والتأنق في الصياغة ، والقصد الى الانتقاء .

---

(١) د . باكزه رفيق حلمي ، مجلة المجمع اللغوي الأردني عـدد ٢ مجلد / ١ ص ٦٠ وما بعدها ، بتصرف .

فاذا جاء من اسلافنا على أن : « كلام العرب مبني على أربعة أصناف : على الثلاثي ، والرباعي ، والخماسي » . ثم يحكم بأن : « بنات الحرفين في الكلام قليل » (١) .. قلنا : لا يمنعنا ذلك — كما لم يمنعهم — من الاعتراف بوجود البناء (الثنائي) مستقلا عن (الثلاثي) وليس منه ، وانه نشـأ في المرحلة البدائية لنشوء اللغة .

كما سبق ان رددنا اعتبارهم الثنائي المعتل ثلاثيا سقط ثالثه لعلة ، لأن العلة لا علاقة لها بأصل البناء ، بل هي تغييرات صوتية محضة تطرأ عند الاسناد أو الاضافة لتغيير الدلالة الوضعية النحوية .

والميزان الصرفي ، انما هو وسيلة للكشف عن خفايا اللغة ، وأسرارها ، وتمييز أصناف مفرداتهـا ، وليس لتصـنيع الأصول ، واخضـاع جميع المفردات له .

وفي دراسـة قيمة وجادة للدكتورة باكزة رفيق حلمي ، تشير — ايضا — الى ان الثنائية ليست قليلة في الأصول اللغوية ، وانما هي كثيرة في العربية وشقيقاتها (الساميات) بل وأكثر من ذلك في جميع اللغات بعامة ، حين تنقل عن (Blood Field) :

« ولو اجرينا دراسة دقيقة للمفردات وابنيتها في اللغة العربية ، وفي لغات الجزيرة العربية الاخرى لوجدنا أن بالامكان ارجاع معظم مفردات هذه اللغات الى البناء الثنائي ، وهو ابسط صورة لبناء الكلمة ، ليس في لغات الجزيرة العربية فقط ، بل في جميع اللغـات ، فالوحدات اللغوية الوحيدة المقطع(Monosyllagic) ربما كانت هي الأصول الأولى التي نشأت منها وتطورت الوحدات المتعددة المقاطع : اما بتغيير الحركات الداخلية ، واما باضافة مقاطع خارجية الى صدورها ، أو احشائها أو أعجازها . » (٢).

وذكرت الدكتورة باكزة جهود علماء النحو واللغة العرب ، في استقصاء أصول الكلمة ، وما يجري عليها من تغيير ، وما يعتريها من تطور بالاعلال والابدال والقلب والحذف والادغام ... حتى توصلوا الى نتائج طيبة ومذهلة في ابواب التصريف والاشتقاق ، ساعد عليها سمة العربية ودقتها ومرونتها .

---

(١) الكتاب لسيبويه ٢/١٩٦ ، ومعجم العين للخليل ص ٥٦

(٢) مجلة مجمع اللغة العربية الأردني عدد ٢ م / ١ ص ٧٠ وما بعدها بتصرف .

وذكرت — بحق — أن بعض نتائج علمائنا ، بحاجة الى اعادة النظر فيها وفوق اسس علمية ، ساعدت الوسائل العلمية الحديثة على اكتشافها . وعذر الاقدمين فى ذلك انهم لم يكونوا يملكون من وسائل الاختبار سوى الفكر والتجربة الذاتية فى نطق الحروف ، وتحديد مواقعها فى جهاز النطق ، وعلى الرغم من ذلك : فقد أصابوا فى الكثير من نتائج ابحاثهم .. الى ان وصلت الى قول الخليل بن احمد بأن « كلام العرب مبنى على أربعة أصناف: على الثنائى ، والثلاثى ، والرباعى ، والخماسى » وقالت :

« وأصاب فى ذكر الثنائى بأنه البناء الذى يتألف من صوتين صحيحين ، وذكر لذلك الامثلة (قد ، هل ، لو ، بل) . ولكنه لم يصب ، اذ حدد هذه، بأنها تكون فى حروف المعانى فقط .

أما الاسم والفعل فلا يردان على اقل من ثلاثة . وفاته أن الكلمات الاسمية : (أب ، أم ، اخ ، عم ، فم) لا تختلف من حيث البناء وعدد الاصوات الصحيحة عن بناء الامثلة التى ذكرها ، واساس البناء كما حدد هو الصوت الصحيح ، وربما كان السبب فى ذلك : هو خضوع المفردات الاسمية والفعلية للاعراب والاشتقاق والتصريف ، وجمود ابنية حروف المعانى فى حالة لا تقبل التغيير » .

فالخليل — فى نظر الدكتورة — مال الى الصناعة لا الى السليقة والطبيعة اللغوية ، التى يقتضيها عهد الثنائية فى مفرداتها التى هى من مدخرات النشأة الاولى للغة ، فى عهد ما قبل التنبه للقياس ، ولذا يجب أن تعالج معالجة خاصة ، وفق منطق الواقع ، والتراث القديم . وقد كان الخليل — رحمه الله — يعتمد على ذواقه للأصوات : فقد كان يفتح فاه بالف ، ثم يظهر الحرف ، نحو : (أب ، أت ... الخ) .

واشارت الدكتورة باكزة ، الى ان (الاكدية) — هى من اقدم صور لغات الجزيرة العربية وقوية الصلة بالعربية — تلتزم بالاعراب فى جميع الحالات ، ونهايات الاسم ، تحمل علامات الاعراب باصوات المد (و ، ى) وليس بالحركات كما فى العربية وضمت علامات الاعراب فى الاكدية عند الكتابة ، ومع ضم فهى ثنائية فى مثل : (طيب = (Tabu) بعيد = (Raku) رب = (Rabu)) .

وعادت الدكتورة باكزة الى لغات الجزيرة العربية بعامة ، والعربية بخاصة ، وذكرت أن المقارنات اثبتت أنها تتفق جميعا في أن الصيغة الثنائية فيها — الاسمية والفعلية — تشمل طائفة كبيرة جدا من المفردات تكاد تفوق الثلاثيات عدا .

وانها تنتظم الفئات الآتية :

١ — الأفعال الناقصة من حيث التصريف والوظيفة النحوية ، وعددها — كما ذكر النحاة — سبعة عشر ، منها احد عشر فعلا ثنائيا ، هي : كان ، صار ، ظل ، بات ، آض ، عاد ، غدا ، راح ، ما (برح) ، ما (دام) ، ما (زال) وليس (١) وفي الأكدية ما يماثل ذلك ، مثل (Kano) وكذا في العبرية.

٢ — والأسماء المعروفة بالأسماء الستة ، من النحاة من يعربها بالحركات، ومنهم من يعربها بالحروف ، وهي في الحقيقة لا تخضع لأحكام الاعراب المعروفة ، لانها من ذوات المقطع الواحد القصير ، ويتطلب الصاق اللواحق بها من مد حركاتها النهائية ، كما في نحو : (ابوك واخوك وفوك) .

وعند الافراد ان تعرب كما تعرب الأسماء الأخرى ، (جاء الأب ، ورايت الاخ) . (٢) وفي الأكدية مايقابلها ، نحو :(Hamu, Anu, Abu) وكذلك في العبرية . ويلاحظ هنا ان بعض هذه الأسماء احادية البناء في اللغات الثلاث (الأكدية ، والعربية ، والعبرية) : اى انها تتألف من صوت صحيح واحد وحركة مد طويلة . وفي الأكدية والعبرية عدد وفير من هذه الكلمات الاحادية .

٣ — الأسماء الثنائية ، عدا الاسماء الستة ، الوحيدة المقطع ، وهي كثيرة في جميع اللغات العربية .

وهي اما ان تكون وحيدة المقطع قصيرة الحركة ، وتكون على اصناف ، فمنها :

(أ) ما يكون مفتوح الاول ، وهو الغالب ، نحو : (قد ، يم ، يد ، دم ، غم ، هم ، كف ، دف ، رف ، خد ، جد ، صف ، بط ، رب ، حج ، طب) .

---

(١) الكافية (شرح الاسترابادي) ٢ / ٢٩٠

(٢) همع الهوامع ، السيوطي ، ٣٨/١

(ب) وما يكون مضموم الأول ، نحو : (أم ، دب ، جب ، خف ، در ، مر ، جق ، بر) .

(جـ) وما يكون مكسور الأول ، نحو : (قط ، هر ، زق ، رق ، شص ، دن ، كن) .

وفى اللغات الأكدية ما يقابلها تماما .

٤ ــ الأسماء الثنائية ، ذات النهايات الحركية الممدودة ، نحو : (فتى ، صبا ، هوى ، نوى ، جوى ، عصا ، قفا ، مها ، علا ، سهـا ، ربـا) .

٥ ــ الأفعال المعتلة ، وذكر النحاة ثلاثة أصناف منها : المثال ، نحو : وعد ، وهب . والأجوف ، نحو : قال ، مال . والناقص ، نحو : سمى وجرى ودعا .

ولو أمعنا النظر ، لوجدنا أن المثال الأول سالم وليس معتلا : فالواو فى (وعد) ليس صوتا حركيا أو حرف علة ، بل هو صوت صحيح ، مخرجه من بين الشفتين كالباء والميم ، واختفاؤها عند تغيير البناء ليس واجبا ، وانما هو ظاهرة حضارية ثبتت فى اللغة الكتابية فقط وبقيت فى لهجات الكلام ، فنحن نقول : (يوعد) ، و (يوهب) . وهو بذلك ثلاثى صحيح .

أما المثالان الثانيان ــ فى الأجوف والناقص ــ فهما ثنائيان ، وحرفا المد فيهما حركتان طويلتان .

وخلصت الدكتورة من كل ما سبق ــ وأنا معها ــ الى أن :

« المفردات الثنائية تفوق فى العدد الثلاثيات ، وأن معظم الثلاثيات تطور من أصول ثنائية (١) .

وفى ختام دراستها القيمة ، تدعو الباحث الى ملاحظة الأحاديات فى لغات أخرى ، كالانجليزية ، فى نحو (Zoo, See, Do, Too, You, we, He, Se, Tea) ، وفى الفارسية ، نحو : (دو = اثنان ، شا = الملك العظيم ، مو = شعر ، سى = ثلاثون ، رو = وجه ، دو = غاية ، خو = عادة ، تا = صفحة ، با = قدم) .

وفى اللغة الكردية ، نحو : (دو = اثنان ، مو = شعر ، رو = وجه ، شو = زوج ، جو = شعير ، خو = عادة ، رى = طريق ، دى = قرية) .

وقد أطلنا فى هذا المقام ولنا عذرنا ، لأن الكثرة من الباحثين دأبت على القول السريع ، بأن الثنائية فى لغتنا قليلة .

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية الأردنى جـ ١ عدد ٢ ص ٧٠ وما بعدها بتصرف .

بحث الثنائية ليس ترفا عقليا

● والبحث فى نظرية « الثنائية » ليس ترفا عقليا ، ولا أمرا هامشيا ، ولا يتقوقع فى دقة تخصصية :

فمن الاعتراضات الشكلية على بحث مشكلة « الثنائية » ما اثاره الاستاذ عبد القادر المغربى معترضا على آراء الاب مرمرجى — بقوله :

« واللغة العربية الى غير هذا — من الخدمات المتواضعة — أحوج ، والى نوع آخر من الغذاء الاصلاحى أنجع وانضج » . (١)

وهذا فى رايى الغاء فج للمسالة من اساسها ، وغلق لباب بحث تحتاجه العربية للتأصيل والوصول الى الحقيقة فى مسائل طال بحثها فى غير ما تكاتف وامعان ، تبقى الخلاف معلقا لها ، والضباب مخيما حولها .

ولذا يرد الاب مرمرجى على الاستاذ المغربى فى موضوعية مشوبة بالقسوة ، حين يصفه بأنه : « من المتمسكين بالقديم ، وغير الواقفين على كنه (الثنائية والالسنية السامية) ، لجهله — ما عدا العربية — بقية الالسن السامية وقواعدياتها وأسرارها وتاريخها ، وما تفترض مقارنتها من المعلومات والاساليب التقنية ، وهذا مما يؤسف عليه ، فان الاستاذ — مع كونه اماما فى العربية — يعسر عليه المناقشة فى ذات الموضوع » .

ثم يسوق الكلام الى كل معارض للثنائية ، بقوله : « فكأنى بحضرات أئمتنا الاجلاء ، يؤثرون بقاء المعجمية على ما هى عليه من الاضطراب ، والتضارب ، والتنافر ، والتناقض فى اشتقاق الالفاظ وتطور معانيها ، على ان تنسق ويعلل سياقها ، فيتجلى فيها الانسجام والتساوق والمنطقية » .

ثم يعود الى الحدة ، والثورة على المالوف ، ويلتمس العذر للأقدمين بقوله :

« وذلك لان الوسيلة المقترح استخدامها ، لبلوغ هذا الأرب ، هى : (الثنائية ، والالسنية) وهو ما لم يألفوه ، فلا تستمرئه ذهنيتهم التقليدية .

---

(١) معجميات عربية سامية ص ١٠٨

ولا أغالي اذا جزمت بأن نفس اللغويين الأقدمين — الذين تفردوا بالذكاء والعبقرية — لو عاشوا في زماننا ، واتقنوا معرفة اللغات السامية ، ووقفوا على تقدم العلوم الألسنية في الأصقاع الغربية ، لجحدوا كثيرا من نظرياتهم ، واعتنقوا المذاهب المستحدثة — على أن ما تعذر على القدماء عمله ، من الهين اليوم على شيوخ اللغة اجراؤه في معاهدهم ، ولا سيما في وسط المجامع اللغوية ، وبنوع أخص بين أعضاء لجان وضع المعاجم الحديثة » (١) .

ومن النقد الشكلي أيضا لنظرية « الثنائية » ، في نقد كتاب « هل العربية منطقية » للأب مرمرجي . ما ذكره الدكتور أحمد فؤاد الأهواني ، اذ وصف مثل هذا البحث بأنه « بحث خاص ، يهم المشتغلين باللغة وأصولها واشتقاقها ، ويهم المجمع اللغوي (المصري) بشكل خاص .

ويتساءل : هل اطلع المجمع اللغوي على البحث ؟ واتخذ قرارا بشأنه أم لا .

كما يصف الثنائية بأنها هدامة للثلاثية والرباعية ، ومقوضة لأركان المعاجم (٢) .

ويرد الأب مرمرجي على شق الاعتراض الأول ، بأن المجمع حبذ عمله واثنى عليه ، وانه تلقى رسالتي استحسان من صاحب السعادة المرحوم محمد توفيق رفعت باشا ، رئيس المجمع ، ومن صاحب المعالي عبد العزيز فهمي باشا . كما يتمنى المؤلف أن تتبنى المجامع اللغوية نظريته ، لتوافر الوسائل العلمية والتقنية والمادية ، ومؤازرة المخلصين .

ويرد على الشق الثاني بأن :

« الثنائية في أعيننا غير هدامة الثلاثية ولا الرباعية ، ولا هي مقوضة أركان المعاجم ، انما هي وسيلة التأصيل السابق طور « التصريف » :

فالقائل بالثنائية يدع التصريف على ما هو للثلاثي والرباعي ويحصر عمله في المعجمية ..

وفي هذا الحقل عينه لا يتوخى محق الثلاثية والرباعية من اللغة ، لكنه يرتئي بأنه : كما أن الرباعي يسوغ رده الى الثلاثي كذلك يمكن رد الثلاثي

---

(١) المصدر السابق .

(٢) مجلة الثقافة المصرية عدد ٥٣١

الى ثنائى ، مما ينجم عنه أن الثلاثى ليس بدء الاشتقاق ، بل الثنائى .

ويرى عمليا أن فى هذه النظرية للمعجمية فوائد جمة ، منها تجلى الانسجام والتساوق والمنطقية فى تشعب الألفاظ بعضها عن بعض .

وتوسع المعانى وتطورها ، مما هو واضح الفقدان فى الحالة الثلاثية الحاضرة .

فمن ثم لا خشية على المعاجم من الثنائية ، لأنها بالعكس تنشىء فيها تنظيما معقولا منطقيا .

كما أن ترتيب المعاجم الحديثة مثل : محيط المحيط ، وأقرب الموارد ، والبستان ، لم يضر بالمعجمية ، بل نفعها ، وان خالف بالواقع تنظيم (القاموس المحيط ، واللسان ، والتاج) ، أو بالأحرى : قلة التنسيق فيها (١) .

غير أنى أبادر فأقول : ان بحث الثنائية ، سيضيف الى الأبحاث اللغوية فى العربية أعباء كبيرة تتطلب منا تضافر الجهود :

فسيوجب علينا ذلك من جديد دراسة تاريخ العربية ووصفها وتطورها .

وسيوجب علينا : أن نعيد النظر فيما تعده اللغويون فى بابى الاعلال والادغام ، وما أرسوه من نظريات ، وما تخيلوه من تعليلات ، وما سلموا به من أوزان :

فوزان قط بالتشديد (فع) لأنها عين الكلمة لا فعل كما ذكروا على أنها لام الكلمة ، اذا قلنا : قطع بالتشديد على وزان فعل بالتشديد .

وسنعيد النظر فى سلاسل الاشتقاقات ، وخاصة غير القياسية منها ، لبعثها وبحثها والانتفاع بها ، للاثراء والتنمية اللغوية ، وجعلها مطردة — ولو على رأى الكوفيين — للاستفادة من مادتها فيما تمطرنا به محدثات العصر الحديث صباح مساء ، من مدلولات اجتماعية تحتاج لألفاظ لغوية ، ويكاد هذا الجديد يصل كل يوم الى خمسين كلمة (كما ذكر المكتب الدائم لتنسيق التعريب فى العالم العربى) .

وحين تقف العربية بكماء بلهاء أمام هذا الطوفان ، سيرميها أبناؤها — قبل أعدائها — بالعقم ، وليست العربية عقيمة ، وانما هى ولود مرنة مطواع .

---

(١) معجميات ص ١١٣

وسنراجع — فى ضوء النظرية من جديد — الأصول الثلاثية غير السالمة (أى المضعفة والمضاعفة والمهموزة والمعتلة بأقسامها : المثال ، والأجوف ، والناقص ، واللفيف المفروق والمقرون) وكذلك مشتقاتها ، ومعالجتها فى ضوء المبادىء الحديثة (للفونولوجيا : Phonologie) .

وسيلاقى وزن (فعل) تحفظات جديدة ، اذ لا يصلح بشكله الحاضر لقياس الأصول الرباعية خاصة ومشتقاتها عامة .

بل اننا سنضطر الى أن نزن الرباعى المضعف ، مثل : وسوس ، على فعفع ، لا على فعلل ، اذ أنه مكرر من ثنائيين .

ولن تبقى حروف الزيادة محصورة فى حروف (سألتمونيها) . اذ أمكن تشديد كل الحروف الأبجدية فى العربية .

وستحتاج الثنائيات التى انتقلت الى ثلاثيات — وكذلك مشتقاتها بالشد والمد — الى أوزان خاصة بها ، وليست على وزان (فعل) .

ولا يخيف ذلك وغيره سدنة العربية وحماتها : فمتى صحت العزائم ، وعلت الهمم ، وقوى الدفع ، وخلص الاخلاص ، فستخدم لغتنا وفخرنا ، وسنبنى كما بنت أجدادنا ، ونفعل فوق ما فعلوا .

* * *

وبعـــد

فتاريخ اللغات السامية فى أكثر نواحيه غامض ، ورمال الجزيرة العربية — وهى موطن الساميين — لا تفصح عما يصف هذا التاريخ البعيد .

ولذلك سيظل الاختلاف بين الثنائيين والثلاثيين قائما بين أبناء العـــربية وغيرهم ، وسيجد كل فريق ما يبرر به القبول أو الرفض لهذه النظرية أو تلك . وسيبقى الأمر كما قال الأب (هنرى فليش) :

« ان التحليل الداخلى للكلمة العربية أو السامية ، لتمييز الأصـــول الثنائية لما ينته الى نتيجة مرضية ، ولعله من المحال أن يحدث هذا . وخلاصة القول : ان مشكلة الثنائية لما تلق حلا » (١) .

---

(١) العربية الفصحى ص ٢٥١

وإذا كان علماء التاريخ ، وعلماء « الأنثربولوجيا » يتنازعون الرأى فيما بينهم أشد الاختلاف ، مع خبر يروى ، أو اثر يذكر ، أو شاهد يرجح ، أو حفريات تهدى .. فإن باحثى اللغات أشد حيرة ، وأكثر اختلافا ، وأوسع متاهة .. حين يصمت التاريخ ، ويندر الشاهد ، ويعز الأثر ، ويفتقد الدليل ، وتضيع الوثائق .

ولكن قياس الغائب على الحاضر ، وإعمال العقل فى المأثور على تلته باعتبار أن الظاهرة تشيع .. وتقليب الفكر فيما سبق مما ذكرناه ، يجعلنى أقرر وأنا مطمئن :

إلى أن عددا كبيرا جدا من الأصول الثلاثية وما فوقها يرد إلى أصول ثنائية الأصل .

وأن الجذور الثنائية أصيلة وثابتة فى لغتنا ، وغير قليلة .

ولعلى بذلك الجهد المتواضع أكون قد قدمت شمعة على طريق البحث ، تهدى السائرين ، وتحفز الباحثين على التنقيب عن الحقيقة ، حتى يسرى الضوء جانب من جوانب العربية ، بقى زمنا فى حجاب مستور .

« والله يقول الحق وهو يهدى السبيل » (١)

* * *

---

(١) الأحزاب : ٤

المراجـــع

١ ـــ الأب انستاس ماري الكرملي وآراؤه اللغوية : د . ابراهيم السمرائي ، ط المعرفة بمصر سنة ١٩٦١م

٢ ـــ الاتقان في علوم القرآن ، لجلال الدين السيوطي ، ط ثالثة القاهرة سنة ١٣٧٠هـ

٣ ـــ جمهرة اللغة : لابن دريد الأزدي ـــ ط حيدر آباد ـــ الهند ١٣٤٤ هـ

٤ ـــ الخصائص : لأبي الفتح عثمان بن جني ، تحقيق الشيخ النجار ، ط دار الكتب المصرية سنة ١٣٧١ هـ

٥ ـــ عبقرية اللغة العربية : للأستاذ محمد المبارك . ط دار الفكر ببيروت

٦ ـــ العين : للخليل بن احمد ، تحقيق : د . عبد الله درويش ، ط القاهرة

٧ ـــ الفلسفة اللغوية لجورجي زيدان ـــ القاهرة سنة ١٨٨١ م

٨ ـــ في التطور اللغوي : د . عبد الصـــبور شاهين ، ط أولى القـــاهرة سنة ١٣٩٥هـ

٩ ـــ فقه اللغـــة العربية : د . ابراهيم محمد نجا ، ط الســـعادة بمصر سنة ١٩٧٥م

١٠ ـــ فقه اللغة المقارن : د . ابراهيم السمرائي ، ط بيروت سنة ١٩٦٨م

١١ ـــ اللغة وخصائص العربية : للأستاذ محمد المبارك ، ط ثالثة بيروت سنة ١٩٦٨م

١٢ ـــ في علم اللغة العام : د . عبد الصبور شاهين ، ط ثانية ، القاهرة سنة ١٣٩٧هـ

١٣ ـــ في اللهجات العربية : د . ابراهيم أنيس ـــ القاهرة

١٤ ـــ الكتاب : لسيبويه ، ط بولاق بالقاهرة سنة ١٣١٦هـ

١٥ ـــ الألسنية العربية : للأستاذ ريمون طحان ، ط دار الكتاب اللبناني بيروت

١٦ ـــ اللغة : ج . فندريس ، تعريب : الدواخلي والقصاص ، ط القاهرة سنة ١٩٥٠م

١٧ ــ اللغة العربية فى عصور ما قبل التاريخ : للأســتاذ أحمد حسين شرف الدين سنة ١٩٧٥ م

١٨ ــ اللغة العربية عبر القرون : د . محمود حجازى (المكتبة الثقافية) عدد ١٩٧

١٩ ــ اللهجات العربية : د . ابراهيم انيس . القاهرة

٢٠ ــ من اسرار اللغة : د . ابراهيم أنيس . مصر سنة ١٩٥١م

٢١ ــ المزهر فى علوم اللغة وانواعهــا : للســيوطى ، ط الحلبى بمصر سنة ١٣٧٨هـ

٢٢ ــ المعجمية العربية على ضوء الثنائية والالسنية السامية ، للأب : أ . س مرمرجى الدومنكى . ط فى القدس سنة ١٩٣٧م

٢٣ ــ معجميات عربية سامية : للأب : أ . س مرمرجى الدومنكى ، ط لبنان سنة ١٩٥٠م

٢٤ ــ مقدمة لدرس لغــة العرب : للشيخ عبد الله العلايلى ــ القاهرة سنة ١٩٣٦م

٢٥ ــ مقاييس اللغة ، لابن فارس ، تحقيق : الاستاذ عبد السلام هارون القاهرة سنة ١٣٦٦هـ

٢٦ ــ نظريات فى اللغة : للأستاذ انيس فريحه ، ط دار الكتاب اللبنانى ــ بيروت

٢٧ ــ نشأة اللغة عند الانسان والطفل : د . على عبد الواحد وافى ، ط ثانية القاهرة

٢٨ ــ نشوء اللغــة العربية ونموها واكتهالهــا : للأب مارى أنستاس الكرملى ، ط سنة ١٩٣٨م

٢٩ ــ الوجيزفى فقه اللغة : للأستاذ محمد الأنطاكى . ط الشهباء بحلب سنة ١٣٨٩هـ

محتويات الكتاب

رقم الايداع ٣٤٠٨ / ١٩٨٠